معاناة وكفاح المصريين ضد حكم البطالمة
دراسة مصدرية(*)

أ.د محمد السيد عبد الغني
أستاذ التاريخ والحضارة اليونانية والرومانية
كلية الآداب جامعة الاسكندرية

الملخص:

يتناول البحث الحالي حياة المصريين تحت الاحتلال البطلمي المقدوني وما عانوه من تهميش لهم واستغلال لثروات بلادهم، ورد فعل المصريين أهل البلاد على هذا الوضع الجائر..

ويبدأ البحث بمقدمة تتناول صورة مصر القديمة والمصريين في المصادر الكلاسيكية، حيث تثني تلك المصادر على تفوقهم وريادتهم في الكثير من العلوم والمعارف، كما تركز على ثراء مصر الأسطوري وكرم حكامها وتسامح أهلها مع الأجانب.

ثم ينتقل البحث إلى غزو الإسكندر الأكبر المقدوني لمصر التي كانت آنذاك تحت الحكم الفارسي. لقد أبدى الإسكندر للمصريين أنه محرر ومخلص لهم من الحكم الفارسي البغيض والمتغطرس وليس غازيا محتلا، وأنه يحترم ويبجل آلهتهم وعقائدهم، وأقام الاحتفالات وقدم الأضحيات لتلك الآلهة المصرية في منف وغيرها. وقد صدق المصريون دعاية ووعود الإسكندر الزائفة: فقد روج لهذه الأفكار نظريا، أما من الناحية العملية فقد جعل دعائم حكم البلاد ومفاتيحها الاستراتيجية في أيدي بني جلدته من المقدونيين والإغريق وهمش المصريين .

ومنذ بداية الحكم البطلمي في مصر انتهج البطالمة صراحة ودون مواربة هذا النهج

(*) مجلة "وقائع تاريخية" العدد (٤٠)، يناير ٢٠٢٤.

العملي في استغلال مصر وتهميش المصريين. لقد استبعد ملوك البطالمة المصريين من الجيش البطلمي قرابة القرن الأول من حكمهم في مصر واعتمدوا بصفة أساسية على المرتزقة الإغريق ومنحوهم إقطاعات كبيرة من أرض مصر، وكان أغلب المصريين مزارعين أجراء في تلك الأراضي والأراضي الملكية. وعلى مستوى الإدارة والاقتصاد كان المصريون مجرد أدوات انتاج وشكلوا الطبقة الدنيا في المجتمع في العصر البطلمي إلا فيما ندر. ومن الناحية النفسية تعامل هؤلاء الأجانب من الإغريق والمقدونيين باستعلاء واستهانة مع المصريين في الإسكندرية وفي الريف المصري، كما يتجلي في شواهد وقرائن من المصادر الأدبية والوثائق البردية. وإزاء هذا التهميش الواضح والمعاملة المتعجرفة مع المصريين يتناول البحث – على مدى العصر البطلمي وفي تسلسل تاريخي– هذه الظواهر الآنفة الذكر ورد فعل أهل البلاد المصريين عليها. وقد تمثل رد الفعل هذا في مقاومة وكفاح – بصورة فردية أو جماعية – بغرض كسر غرور وعنجهية التصرفات الفردية المتعجرفة من قبل هؤلاء الأجانب من ناحية ، ثم –في مرحلة لاحقة بدأت بعد انتصار البطالمة على السلوقيين في معركة رفح عام ٢١٧ ق.م. الذي لعب فيه الجند المصريون دورا كبيرا– التمرد والثورة في حالات جماعية ضد الحكم البطلمي بغرض التخلص منه من ناحية أخري ، وذلك بكل سبل الكفاح المسلح والمقاومة السلبية.

الكلمات المفتاحية:

مصر في المصادر الكلاسيكية– الإسكندر الأكبر في مصر – معاملة البطالمة للمصريين – استعلاء الإغريق – تهميش المصريين – مقاومة وكفاح المصريين

Abstract:

This research deals with the daily life of the Egyptians under the Ptolemaic Macedoian occupation and their sufferings and marginalization and the exploitation of the wealthes of their country on the one hand, and the reactions' reactions against this quite unjust situation on the other.

The research begins with an introduction displaying the image of ancient Egypt and Egyptians in the classical sources. These sources praise and highly appreciate the excellence and pioneership of the Egyptians in several sciences and fields of knowledge. They also

focus on the legendary wealth of Egypt, the generosity of its rulers, and the tolerance of its people with the foreigners.

Then the research goes on to demonstrate the conquest of Egypt by Alexander the Great which was then under the Persian rule. Alexander proclaimed that he was not a conquerer, but rather a liberator and savior of Egypt from the abominable Persian occupation. He also propagated that he reveres and highly appreciates the Egyptian gods and religion. The Egyptians believed and admired such untrue propaganda of Alexander. He almost used such propaganda as a political tool to win the favor of the Egyptians. As a matter of fact, however , he proved to be otherwise. Before his departure to continue his successful campaign against the Persians , he planned that the actual government of Egypt and its key strategic positions be managed by Macedonians and Greeks , and marginalized the Egyptians in minor administrative posts.

From the beginning of the Ptolemaic rule in Egypt the Ptolemies explicitly adopted this sort of pragmatic exploitation of the Egyptian resources and marginalization of the Egyptians. The Ptolemaic kings intentionally excluded the Egyptians from the Ptolemaic army through most of the first century of their rule in Egypt. They relied mainly on the Greek mercenaries and granted them large allotments of agricultural land which were almost tilled by Egyptian cultivators , side by side with the royal land. On the administrative and economic level , the Egyptians were mere tools of production and constituted the lowest class in the society, with very few exceptions. As regards the psychological element, those Greek and Macedoian foreigners almost treated the Egyptians with haughtiness and superiority in Alexandria and the countryside, as is clearly displayed in some evidence from the literary sources and papyrological documents. Against this clear marginalization, contmpt and arrogance in dealing with the Egyptians, the research presents - all through the Ptolemaic period and in chronological order - the Egyptians' reactions towards the above-mentioned phenomena. Such reactions were embodied in various forms of resistance and struggle - individually or collectively - in order to weaken or humiliate the arrogant behavior of such foreigners on the one hand, and then- in a later phase which started immediately after the Ptolemaic triumph over the Seleucids in the battle of Raphia in 217 B.C. , in which the

Egyptian troops a great role- rebellion and even revolution against the Ptolemaic rule to get rid of their occupation on the other hand , by resorting to all means of armed struggle and passive resistance.

Key words:

Egypt in the classical sources - Alexander the Great in Egypt- the treatment of the Ptolemies towards the Egyptians - the Greek arrogance and conciet - marginalization of the Egyptians - resistance and struggle of the Egyptians.

مقدمة البحث

قبل أن نتناول أوضاع المصريين تحت حكم البطالمة يجدر بنا أن ننوه فى عجالة سريعة إلى صورة مصر القديمة (الفرعونية) فى المصادر اليونانية القديمة من خلال مقتطفات ذات دلالة مما جاء بتلك المصادر. إن تلك المصادر تشيد بوضوح بعراقة مصر وريادتها وتفوقها فى كثير من العلوم والمعارف.

إن أقدم مصدر مكتوب فى التراث اليونانى المتمثل فى **ملحمتىّ هوميروس** الإلياذة والأوديسية يُشير – خصوصاً فى ملحمة الأوديسية – إلى **تفوق المصريين فى الطب** وأن أرضهم تنتج أكبر كمية من العقاقير والأعشاب الطبية ويقول نصاً "*.... كل امرئ فى مصر طبيب ولديه من الحكمة والمعرفة ما يفوق كافة البشر*" ***(Homer, Odyssey 4. 229-23 ٢)***.

ثم يأتى **هيرودوت** فى القرن الخامس ق.م بمؤلفه الضخم عن الحروب الفارسية –اليونانية وتخصيص كتابه الثانى من تلك الموسوعة للحديث التفصيلى عن مصر– كإحدى ولايات الإمبراطورية الفارسية آنذاك– وبيان عراقتها وإنجازها الحضارى الكبير منذ القدم.

فهو يقرر أن المصريين من أقدم وأعرق شعوب الأرض ***(Herodotus 2.2)*** وأن الإغريق قد أخذوا عن المصريين كثيراً من عاداتهم ومعبوداتهم ***(2.50-51)***. ومن ناحية التفوق العلمى للمصريين يُفصل هيرودوت القول فى

تفوقهم فى علوم الطب حين يذكر: *"وينقسم التطبيب عندهم إلى الفروع الآتية: لكل مرض طبيب متخصص فيه تحديداً، وبلادهم تعج بالأطباء، بعضهم متخصص فى العيون، وبعضهم فى الرأس، وبعضهم فى الأسنان، وبعضهم فى الأمعاء، وبعضهم فى الأمراض الخفية"* ***(2.84)***.

ويُفصّل أكثر فى براعتهم فى تحنيط جثث موتاهم (بما يعنى **تفوقهم فى علم الكيمياء)** ***(2.86-88)***. كما **ينوّه إلى أن المصريين لم يهتموا بأمر الجسد فقط. وإنما كذلك بأمر الروح**، وكانوا أول من أمن بخلود الروح وتناسخها فى كائنات أخرى، وأن هناك من بين الإغريق المبكرين واللاحقين من اتخذ من تلك العقيدة مبدأ كما لو كانت من بنات أفكارهم (ربما يشير إلى فيثاغورث/ بيثاجوراس) ***(2.123)***. كما يشيد هيرودت بإعجاز **وعبقرية المصريين فى العمارة الضخمة** متمثلة فى أهرامات الجيزة التى أفرد لها حديثاً تفصيلياً ***(2.124-129)***.

ومن بعد ذلك فى القرن الرابع ق.م يأتى كل من **أفلاطون** ثم تلميذه **أرسطوطاليس** (أرسطو). وقد اعترف كل منهما – وإن كان على مضضٍ كواقع فرض نفسه – بريادة وعراقة المصريين فى اختراع كثير من العلوم والمعارف. إذ **يُقر أفلاطون باختراع المصريين للأرقام والحساب والهندسة والفلك** وألعاب الضامة والزهر، وفوق كل ذلك **اختراعهم للحروف (الكتابة)**.... وذلك على يد إلههم تحوت. ومع ذلك يُلمّح إلى أن اختراع الكتابة ليس بميزة لأنه يضعف الذاكرة ويساعد على التذكر ليس إلا!! ***(Plato, Phaedrus 274 C-D)***. وفى محاورة أخرى له ***(Laws 747 A-C)*** يغمز أفلاطون ويلمز- من طرف خفى- حول سوء الاستخدام (المزعوم) من جانب المصريين لعلمىّ الحساب والهندسة. والأدهى والأمرّ أنه **ينسب لوطنه (أثينا) عراقة مزعومة أقدم زمنياً من الحضارة المصرية بألف عام** ***(Timaeus 23D-E)*** حيث جعل عمر حضارة أثينا تسعة الآف عام وعمر الحضارة المصرية ثمانية الآف عام!!. إن هذا الزعم والادعاء الكاذب يتناقض بصورة فجة مع ما أورده وأكَّد عليه

أفلاطون – نفسه – فى محاورة القوانين ***(Laws 656 E-657A)*** حين ذكر أن الطابع المحافظ للأسلوب الفنى المصرى فى الرسم والموسيقى والرقص لم يتغير أو يتبدل قيد أنملة منذ عشرة الآف عام. وكرّر نفس العبارة بتأكيد جازم "وإننى أعنى الرقم فعلاً ولا أبالغ عشرة الآف عام".

بل ويطفح الكيل أكثر فأكثر حين **يخترع أفلاطون لأثينا دوراً أسطورياً وهمياً بأنها هى من أنقذ عالم البحر المتوسط وحضاراته القديمة** من غزو واجتياح مرعب من جانب ملوك **قارة أطلنطس المزعومة** (فى المحيط الأطلسى إلى الغرب من مضيق هرقل/ جبل طارق حالياً) وذلك من خلال بسالة وحسن قيادة أثينا فى التصدى هؤلاء الغزاة إلى أن ابتلع البحر (المحيط) تلك القارة التى ابتدعها خيال أفلاطون! الأغرب من كل ما سبق أن أفلاطون ينسب كل هذه المزاعم والادعاءات إلى كاهن مصرى كبير حيث يضعها على لسانه فى حوار مزعوم (أو مبالغ فيه جداً) مع الحكيم الأثينى سولون عند زيارته لمصر – وكأن لسان حال أفلاطون يقول "وشهد شاهد من أهلها" لكى يُرسّخ فى ذهن المتلقى اعترافاً مصرياً (مزعوما) بريادة وتفوق أثينا: ***(حول هذه الحوارات والمزاعم أنظر محاورتى أفلاطون: تيمايوس وكريتياس:- Timaeus 24 E -25D; Critias 108 E-109 A, 113C- 121 C).***

وعلى نفس المنوال نرى **أرسطوطاليس** (تلميذ أفلاطون) يُقَّر أن المصريين هم أعرق الشعوب وأنهم **امتلكوا دوماً ناصية القوانين والنظام السياسى،** وأنه لابد أن يستفيد الإغريق بما فيه الكفاية بما ورد لديهم ورُوّى عنهم، وأن يسعوا لاكتشاف ما أغفلوه ***(Aristotle, Politiea 1329b, 31-35)***. ومع إقراره بتلك العراقة والريادة فى القوانين والنظام السياسى، وكذلك بفضل المصريين فى اختراع علوم الرياضيات ***(Metaphysica 981 b, 13-25)***إلا أنه يعزو هذه الريادة إلى سبب سخيف وغير منطقى وهو أن الكهنة كانوا ينعمون بوقت فراغ كبير استغلوه فى تعلم الرياضيات!!

وهكذا نرى أن **المصادر اليونانية قبل الإسكندر الأكبر– من شاء منها**

ومن أبى ومن تحفظ – يعترفون ويقرون صراحةً وبجلاء بعراقة مصر وتميزها فى المعارف والعلوم والفنون. هذه حقيقة ساطعة حتى وأن كان الإغريق اللاحقون– قبيل غزو الإسكندر لمصر– قد بدأوا يتعالون على مُعلميهم المصريين الذين نهلوا من علومهم الكثير– بشهادة أسلافهم ولاحقيهم، بل وبشهادتهم هم أنفسهم وإن كانت على مضض – ويزعمون مزاعم لا سند لها بريادة وعراقة مفتعلة، وغمز ولمز ضمنى ينم عن غيرة شديدة من إنجازات الرواد الأوائل الحقيقيين من المصريين.

ننتقل الآن إلى جانب آخر من شهادات المؤرخين والكُتَّاب الإغريق قبل الإسكندرعن مصر – بعيداً عن عراقتها وريادتها العلمية والمعرفية – **وهو الجانب المتصل بغنى مصر وثرواتها.** إن **هوميروس فى ملحمتيه الخالدتين الإلياذة والأوديسية** – اللتان رغم أنهما أعمال أدبية إلا أنهما تنطويان على إشارات ودلالات ومضامين تاريخية لا تخطئها العين – قد رسَّخ فى يقين الأجيال اللاحقة من الإغريق من بعده صورة نمطية متجذرة لا تنمحى **عن ثراء مصر اللامتناهى، وعن مدى كرم وتسامح وأريحية المصريين وحكامهم مع الأجانب والغرباء.** إن هوميروس قد ألمح فى الإلياذة لمحةً ذات مغزىٍ عميق – وإن جاءت بصورة عارضة فى السياق العام للملحمة– عن مدى ثراء مصر الأسطورى، وخاصة فى عاصمتها القديمة طيبة التى تتكدس فى منازلها أعظم الكنوز والمقتنيات ***(Homer, Iliad 9, 381-384)***.

ويترسخ هذا الانطباع العميق عن ثراء مصر الأسطورى فى ملحمة الأوديسية فى إشارات تفصيلية عديدة إلى أحداث – حقيقية أو مُتخيلة – فى السياق العام للملحمة. ففى هذا السياق يرد ذكر الهدايا الثمينة الباذخة من الذهب والفضة التى أهداها أحد نبلاء مدينة طيبة المصرية لهيلين ومينيلاوس عند زيارتهما لطيبة وهما فى رحلة العودة إلى بلاد اليونان مِروراً بمصر– بعد سقوط وتدمير طروادة ***(Homer, Odyssey 4.120-132)***. وفى موضع آخر من الملحمة ذاتها يروى أوديسيوس– بطل الملحمة والمتنكر فى صورة

قرصان كريتى فى هذا المشهد من الملحمة ويتحدث بلسان ذلك القرصان– عن حملة قام بها هو ورفاقه من قراصنة كريت – بعد سقوط طروادة – حيث شدوا الرحال إلى مصر على متن تسع سفن بغرض القرصنة واللصوصية. ويواصل روايته بأنهم هبطوا عند أحد مصبات النيل (أيجوبتوس)، وعاثوا فى حقول المنطقة الساحلية التى هبطوا فيها فساداً ونهباً وسلباً وذبحوا الرجال واختطفوا النساء والأطفال. ورغم ذلك العمل المروع من أعمال القرصنة فإن تلك الغارة مُنيت بهزيمة فادحة حين أحاط الجيش المصرى بالقراصنة المعتدين وأباد معظمهم وأسر من تبقى، وكان من بينهم القرصان المزعوم صاحب الرواية– وذلك بمجرد علم القوات المصرية باستغاثة المدنيين المصريين الآمنين (يبدو أن الإشارة فى الأوديسية تؤكد ما جاء فى التاريخ المصرى القديم من تصدى الملك مرنبتاح (١٢٢٥–١٢١٥ ق.م) من الأسرة التاسعة عشرة، ومن بعده الملك رمسيس الثالث (١١٩٨–١١٦٧ ق.م) من الأسرة العشرين لغزوات شعوب البحر على السواحل المصرية وإلحاق الهزائم بهم).

إن ما يعنينا فى هذا المقام من رواية القرصان الكريتى المزعوم (بلسان أوديسيوس) ***(Odyssey14.240-286)***. هو بقية روايته عن تلك المغامرة الفاشلة من أعمال القرصنة اليونانية على السواحل المصرية. إذ يروى هذا القرصان المزعوم الذى أفلت من القتل على يد القوات المصرية كيف توسل إلى الملك المصرى –الذى كان على رأس جيشه لصد الغزاة– واستعطفه وجثا عند ركبتيه وقبَّلهما، فصفح عنه الملك وأجلسه إلى جواره فى عربته واصطحبه إلى قصره بينما دموع القرصان منهمرة من كرم وعطف الملك! ثم يكمل القرصان قصته فى مصر– فى هذا الجزء من الملحمة– بأنه أمضى فى مصر سبع سنوات وجمع ثروة طائلة من المصريين الذين أغدقوا عليه المنح والعطايا!!

إن هذه الرواية الموثقة فى ملحمة الأوديسية –أقدم أدب يونانى مدَّون هى والإلياذة– تبرز المدى غير المسبوق والمُفرط من تسامح الملوك المصريين مع أعداءهم عند المقدرة، ونسيان الإساءة والجُرم بحق رعيتهم، وكرمهم وكرم

شعوبهم –إلى حد الغفلة أحياناً– مع هؤلاء اللصوص و الأفَّاقين.

كل ذلك مما ورد بالكتاب المقدس للإغريق (ملحمتىّ هوميروس) جعل الأجيال اللاحقة من الإغريق ترنو بأبصارها ويسيل لعابها أمام إغراء هذا البلد الثرى الكريم المضياف المتسامح– لا سيما حين تضعف قواه ويُنهك أمام موجات الغزو والحكم الأجنبى بعد نهاية عصر الدولة الحديثة بنهاية الأسرة الحادية والعشرين (١١٦٧–٩٤٥ ق.م). وهكذا– وبعد هذا التصريح المفتوح والمبكر فى ملاحم هوميروس– **وجدنا موجات متتالية من المرتزقة الإغريق يتدفقون على مصر فى عهد الأسرة السادسة والعشرين** (العصر الصاوى ٦٦٣–٥٢٥ ق.م) لحماية عروش ملوك تلك الأسرة (لا سيما أبسامتيك الأول ٦٦٣–٦١٠ ق.م، وأحمس (أمازيس) الثانى ٥٧٠–٥٢٦ ق.م.) **وتمتعوا بامتيازات هائلة ووضع مرموق على حساب الجند المصريين الوطنيين.** بل أن تغلغل ونفوذ هؤلاء المرتزقة الإغريق لدى ملوك هذه الأسرة (الوطنية!) جعل ملوك تلك الأسرة **يقيمون مدينة يونانية للتجار والمرتزقة الإغريق** (من كافة المدن اليونانية ولاسيما من المدن والجزر اليونانية على الساحل الغربى لآسيا الصغرى) فى غرب دلتا النيل بالقرب من الفرع الكانوبى هى **مدينة نقراطيس** (كوم جعيف بمركز إيتاى البارود بمحافظة البحيرة حالياً).

وحتى فى ظل الاحتلال والحكم الفارسى لمصر بعد سقوط الأسرة السادسة والعشرين (من ٥٢٥ ق.م إلى ٣٣٢ ق.م؛ وهى فترة تخللتها مرحلة مؤقتة من الاستقلال المصرى عن الحكم الفارسى وامتدت نحو ستين عاما من ٤٠٤ – ٣٤٣ ق.م. شهدت ثلاثة أسر مصرية حكمت لفترات قصيرة وهى الأسرات ٣٠،٢٩،٢٨) وما تخلل الحكم الفارسى من ثورات مصرية حاولت الخلاص من الحكم الفارسى **نجد هؤلاء المرتزقة الإغريق يأتون إلى مصر– فرادى وجماعات**، بصفة شخصية أو رسمية– **لمساعدة الثورات المصرية ضد الفرس** فى المرحلة الأولى حتى عام ٤٠٤ ق.م، أو **لتدعيم ملوك الأسرات ٣٠،٢٩،٢٨ للحفاظ على استقلال بلادهم** ضد محاولات الفرس استعادة

السيطرة على مصر... **ولم تكن تلك المساعدات من المرتزقة الإغريق بلا مقابل طبعا**، وإنما كانت لها مآربها وحسابات المصالح السياسية والاقتصادية من جانب المدن اليونانية وحسابات الأجور والمكافآت السخية من جانب هؤلاء الجند والقادة المرتزقة الإغريق الذين **كانوا يتقاضون مبالغ باهظة من الملوك المصريين فى فترة الاستقلال المصرى المؤقت (٤٠٤-٣٤٣ ق.م).**

الخلاصة مما سبق فى هذه المقدمة التمهيدية الوثيقة الصلة – كخلفية ضرورية – بالموضوع الرئيسى لهذا البحث عن وضع المصريين تحت الحكم البطلمى هى أن نظرة الإغريق إلى مصر قبيل مجئ الأسكندر الأكبر يمكن ايجازها فى محورين: الأول هو **الجانب الحضارى** وتمثل – كما رأينا– فى أنه على الرغم من **اعتراف المصادر اليونانية القديمة بفضل وريادة وعراقة مصر** فى العديد من العلوم والمعارف والمنجزات الحضارية إلا أن مفكرى الإغريق خلال القرن الرابع ق.م.(أفلاطون وأرسطوطاليس) بدأوا يظهرون **نبرةً من التعالى على الحضارة المصرية العريقة** – رغم اعترافهم على مضض بريادتها – وبدأوا فى الغمز واللمز غير الموضعى حول جوانب من تلك الحضارة.

أما المحورالثانى فيتمثل فى **النظرة المادية النفعية الانتهازية لاستنزاف ثروات مصر**–التى كانت مضرب الأمثال منذ الملاحم الهومرية– من جانب معظمهم بحكم موارد وطنهم الشحيحة والتى كانت تمثل بيئة طاردة لكل الساعين إلى سبل أفضل لكسب العيش. ولابد من الأخذ بعين الاعتبار أن معظم هؤلاء الذين كانوا يتركون وطنهم من الإغريق بحثاً عن سبل أفضل للرزق من جند مرتزقة أو بحارة أو ملاحين أو صغار التجار كانوا من الطبقات الفقيرة التى لا تأبه ولا يعنيها العراقة والريادة الحضارية لمصر وأهلها. لذلك كان العنصر الاقتصادى المادى هو بيت القصيد لهؤلاء فى استنزاف ما أمكنهم من ثروات مصر قبل الإسكندر وبعده....

بعد هذه المقدمة الضرورية التى أوضحت رؤية الإغريق لمصر – على المستوى الحضارى والثراء المادى– قبل استيلاء الإسكندر الأكبر ومن بعده

الأسرة الحاكمة البطلمية على مقدرات البلاد، نأتى الآن إلى بيت القصيد وهو وضع المصريين فى الحقبة البطلمية فى ضوء ما هو متاح لدينا من مصادر تراث تلك الحقبة، وثائقية كانت أم أدبية.

بعد انتصار الإسكندر الأكبر على الملك الفارسى داريوس الثالث وقواته فى موقعتى نهر الجرانيكوس (٣٣٤ ق.م) وإيسوس (٣٣٣ ق.م) استولى على الساحل الشرقى للبحر المتوسط فى سوريا وفينيقيا وفلسطين بعد مقاومة عنيدة وحصار طويل من جانب مدينتىّ صور وغزة على مدى عام ٣٣٢ ق.م.[٢] ولم يشأ الإسكندر أن يكمل مطاردته للملك الفارسى المهزوم ليقضى عليه نهائياً قبل أن يخضع مصر ويستولى عليها كأخر ولايات الإمبراطورية الفارسية فى شرق المتوسط. ويذكر المؤرخون الإغريق والرومان[٣] أن **فتح الإسكندر لمصر جاء سلمياً ولم يتجشم فيه الإسكندر أية مخاطر**، ويفسرون السبب فى ذلك **بترحيب المصريين بالإسكندر وقواته بسبب ما اقترفه الفرس** من آثام وخطايا بحق معابدهم وآلهتهم وحكمهم العنيف لأهل البلاد. كما يذكرون أن الوالى (الساتراب) الفارسى مازاكيس قد علم بالهزيمة الساحقة لملكه داريوس فى موقعة إيسوس وفراره المشين إلى عاصمة ملكه فى سوسة فآثر الاستسلام السلمى للإسكندر دون مقاومة. وقد **بالغت المصادر اليونانية فى تضخيم تجاوزات الفرس وانتهاكاتهم للمعابد المصرية وقسوتهم المفرطة** فى التعامل مع المصريين[٤]– رغم أن هذا الموقف من الفرس لم يخلُ من قدر من الحقيقة– وهو الأمر الذى استغله الإسكندر فى اللعب على أوتار المشاعر الدينية للمصريين بصورة بارعة ليكسب تعاطفهم وتأييدهم.

فى ضوء هذه الخلفية وفى هذا المناخ المُشبَّع بالنفور والكراهية من جانب المصريين تجاه الفرس طرق الإسكندر الحديد وهو ساخن. **فحين وصل الإسكندر إلى منف**– بعد أن سار بجيشه بمحاذاة الفرع البيلوزى للنيل وترك حامية فى بيلوزيوم (الفرما لاحقاً) ووصل إلى هيليوبوليس ثم عبر إلى الضفة الغربية للنهر حيث منف" ***قَدَّم فى منف الأضحيات للآلهة المصرية – لا سيما***

العجل أبيس- وأقام مسابقات رياضية وموسيقية شارك فيها أبرز مشاهير الرياضة والموسيقى الذين قدموا معه من بلاد اليونان"[٥]. وكرَّر هذه المنافسات الرياضية والموسيقية ثانيةً فى منف كذلك بعد عودته من رحلته المثيرة لمعبد وحى آمون (زيوس) فى واحة سيوة، وأقام كذلك عرضاً وموكباً لقواته بأسلحتها.[٦]

بهذه السبل الدبلوماسية البارعة تجاه المصريين وآلهتهم – التى كانت موضع تحقير الفرس قبل مجئ الإسكندر- **اكتسب الإسكندر محبة المصريين** الذين ربما نصَّبوه فرعونا فى معبد الإله بتاح فى منف حسب التقاليد المصرية.[٧] ومن المهم فى هذا الصدد أن نذكر أن الأسكندر- حين وضع مخططاً مبدئياً للمدينة الكبرى التى سوف تحمل اسمه فى عصر (الإسكندرية) – وضع تصوراً للمعابد التى ستقام فى المدينة للآلهة اليونانية وللربة المصرية الكبرى "إيزيس".[٨]

مثل هذه الأمور من جانب الإسكندر- سواءً كانت عن اقتناع ورؤية صادقة أو كانت سلاحاً دعائياً لكسب ود رعاياه الجدد – **انطلت على المصريين وألهبت مشاعرهم الجياشة تجاهه.** لقد بلغ الأمر بالمصريين فى هذا الصدد أن الخيال الشعبى المصرى قد صنع من الإسكندر – لفترة طويلة من الزمن لعدة قرون- بطلاً قومياً (مصرياً) وابناً لأخر ملوكهم الوطنيين "نكتانيبو الثانى" (٣٦٠-٣٤٣ ق.م)، وكأن من حررهم من طغيان الفرس هو أحد ابنائهم.[٩] إن مما يرجح أن توقير الإسكندر وتقديسه للآلهة المصرية كان من باب التقرب إلى المصريين وكسب ودهم فى المقام الأول هو **الإجراءات العملية التى وضعها لحكم مصر قُبيل مغادرته** لها لمواصلة حملته ضد الملك الفارسى داريوس الثالث. إن **هذه الإجراءات والترتيبات** – حسبما ذكرها المؤرخ أريانوس – قد **وضعت المفاتيح الاستراتيجية لمصر** من جيش وأسطول وإدارة مالية واقتصادية وسيطرة على المناطق الحدودية المؤثرة **فى أيدى قادته وأعوانه الذين تركهم بمصر من مقدونيين وإغريق.** إن الإسكندر بهذا المخطط

الذى وضعه لإدارة مصر بعد رحيله إلى الشرق لتعقب الملك الفارسى **لم يدع للمصريين من حكم بلادهم سوى هامش محدود للغاية** تمثل فى تعيين اثنين من المصريين– دولاسبيس وبيتيسيس– كحاكمين للمقاطعات المصرية فى وادى النيل ودلتاه (وإن كان أحدهما – دولاسبيس– فارسياً على الأرجح، ولعله كان موظفاً فى الإدارة الفارسية السابقة Hölbl, p.12). وقد استقال الحاكم الآخر المصرى بيتيسيس بعد فترة قصيرة وترك الأمر برمته إلى زميله الآخر (Arrian 3.5).

إن هذا الترتيب الأخير لحكم مصر– كما وضعه الإسكندر – كان بمثابة ذرّ للرماد فى العيون بالنسبة للمصريين، وكان الهدف من وضع اثنين من المصريين على رأس الجهاز الإدارى فى الوادى والدلتا هدفاً براجماتياً عملياً يصب فى مصلحة الإدارة المقدونية الحاكمة من منظور خبرة ودراية هذين الموظفين بأحوال المصريين وكيفية التعامل معهم وجباية الضرائب منهم، لا سيما وأن الإسكندر كان قد أصدر تعليماته الأخيرة – قبل مغادرته مصر– إلى كليومينيس النقراطيسى[١٠] – المسؤول عن الخزانة المصرية والمشرف على الصحراء الشرقية المصرية (الصحراء العربية) وعلى بناء مدينة الإسكندرية– أن يسمح لحكام المقاطعات المصريين أن يحكموا مناطقهم وفق تقاليدهم العريقة (Arrian 3.5.4). وهكذا أمسك الإسكندر الأكبر بزمام الأمور فى مصر– حتى فى أثناء غيابه عنها ومن خلال تفويضه لأبرز موظفيه فى مصر كليومينيس النقراطيسى الذى تحكم فى الميزانية المصرية والمزارعين المصريين وكهنة المعابد المصرية ونفَّذ أقدم احتكار لسلعة استراتيجية فى عالم البحر المتوسط، وهى القمح– بقبضة حديدية صارمة وإن غُلفت بقفاز حريرى.

هكذا حُكمِت مصر فى عصر الإسكندر الأكبر على يد من فوضهم لإدارة أمور البلاد فى غيابه لاستكمال حملته الفارسية. ننتقل الآن إلى **فترة حكم بطلميوس بن لاجوس** مؤسس الأسرة الحاكمة البطلمية التى حكمت مصر زُهاء ثلاثة قرون. فبعد وفاة الإسكندر الأكبر بحمى الملاريا فى بابل عام

٣٢٣ق.م تقاسم قادته وأركان حربه من المقدونيين حكم ولايات الإمبراطورية الشاسعة التى أقامها الإسكندر الأكبر على أنقاض الإمبراطورية الفارسية الأخمينية. وقد حكم هؤلاء القادة تلك الولايات- فى أول الأمر- "كولاة/ ساتراباى" تابعين للسلطة المركزية لإمبرطورية الإسكندر التى كان يرأسها أبرز قادة الإسكندر برديكاس- الوصى على العرش المقدونى- ثم تلاه فى هذا المنصب أنتيباتروس ثم بوليبرخون حتى ٣١٦ ق.م، وبعد ذلك توالت الصراعات والمواجهات بين هؤلاء القادة/ الولاة من خلفاء الإسكندر Diadochoi حتى أعلن كل واحد منهم نفسه ملكاً على ولايته بدءاً من عام ٣٠٦/٣٠٥ ق.م.

إن ما يخص موضوعنا من هذه الخلفية العامة للأحداث ما بعد وفاة الإسكندر أن بطلميوس بن لاجوس – أحد كبار قادة الإسكندر وأركان حربه وحرسه الشخصى ورفيقه فى حملته على الفرس- قد عزم على أن يستأثر لنفسه بحكم مصر بمجرد وفاة الإسكندر فأسرع إليها على عجل من بابل عام ٣٢٣ ق.م وترك بقية رفاقه من القادة المقدونيين يتنازعون على حكم باقى الولايات.[١١] وكانت أولى خطوات بطلميوس لتثبيت دعائم حكمه مصر هو التخلص من كليومينيس النقراطيسى الذى سبقه فى حكم مصر أثناء غياب الإسكندر حتى وفاته والذى فرضه برديكاس على بطلميوس كنائب له، حيث دبر له بعض الاتهامات التى أدت إلى محاكمته وإعدامه، وقد ساعده على ذلك أن كليومينيس كان مكروها على نطاق واسع. [١٢] وبعد أن رسخت أقدام بطلميوس كوالى (ساتراب) على مصر- بعد التخلص من كليومينيس، واختطاف جثمان الإسكندر ودفنه فى منف ثم فى الإسكندرية وضم قورينة إلى حكمه فى مصر عام ٣٢٢، وجعل الإسكندرية عاصمة لمصر بدلاً من منف عام ٣٢٠ ق.م، وصد محاولة برديكاس لغزو مصر ومقتله أثناء محاولته الفاشلة لعبور النيل فى ذات العام[١٣] – بدأ يدخل فى صراعات أو تحالفات مع أقرانه من خلفاء الإسكندر لحماية حدود ولايته فى مصر أو للتوسع شرقاً أو

شمالاً لضم مناطق جديدة يبسط سلطانه عليها.

إلى هنا لم تبرز فى المصادر المتاحة لدينا أية إشارة تربط بين الساتراب بطلميوس بن لاجوس ورعيته فى مصر – أقصد المصريين تحديداً. إن أول إشارة مصدرية فى هذا الخصوص تعود إلى عام ٣١٢ ق.م. حين **استعان بطلميوس بحشد كبير من المصريين ضمن جيشه فى معركة غزة**[١٤] التى انتصر فيها– هو وحليفه سليوقوس– على ديمتريوس "قاهر المدن" ابن "أنتيجونوس الأعور" والى بامفيليا وجزء كبير من آسيا الصغرى. ولكن لعل الأكثر أهمية ودلالةً فى هذا الأمر هى اللوحة التى يطلق عليها "**لوحة الساتراب**" المؤرخة بالعام التالى لانتصار الساتراب بطلميوس فى موقعة غزة الآنفة الذكر أى فى عام ٣١١ ق.م. هذه اللوحة ربما كانت مُعلقةً فى أحد المعابد فى"سايس/ صا الحجر الحالية" وفيها يتجلى بطلميوس كـ "حاكم مصر العظيم" والمحارب الشجاع والقائد المنتصر على شاكلة الملوك الفراعنة العظام. وتذكر اللوحة – المكتوبة باللغة المصرية بالخط الهيروغليفى – من بين ما تذكر أن بطلميوس قد عاد من حملته السورية عام ٣١٢/٣١١ ق.م منتصراً، وهبط على الساحل إلى الشمال من "بوتو/ تل الفراعيين حاليا". وتؤكد اللوحة على أن عوائد تلك المنطقة والتى كانت مُخصصة لآلهة بوتو من قبل – والتى سُلبت منهم على يد أرسيس الفارسى وأعادها إليهم الملك خبَّاش– ستخصص ثانية لآلهة بوتو.[١٥]

هذه اللوحة تُظهر الساتراب بطلميوس – رغم أن الخرطوشّين الخاصين بالحاكم وهو يقدم الأضحيات للآلهة المصرية كانا فارغين ولم يُكتب بهما اسم الحاكم، ربما لأنه لم يكن قد أصبح ملكاً بعد – كحاكم فعلى عظيم لمصر وقائد شجاع منتصر. **إن مغزى ومحتوى هذه اللوحة مُهمٌ للغاية.** إنه يُفصح عن مدى تشبث بطلميوس بن لاجوس – وهو ساتراب ولم يصبح ملكاً – بحكم مصر والتودد والتقرب لشعبها. إن هذه الوحة بمضامينها_ودلالاتها الصريحة والضمنية كانت بمثابة تمهيد لإعلان استئثاره بحكم مصر وإعلانها مملكة له

ولنسله (البطالمة) من بعده بعد ذلك بخمس سنوات عام ٣٠٦ ق.م.

وبعد اعتلائه العرش الملكى **استمر بطلميوس فى ترسيخ وتدعيم أواصر حكمه فى مصر** بوسائل وسُبل شتى. **من أبرز هذه الوسائل الترويج الثقافى والدينى لتلك المملكة العظيمة** التى أسعده الحظ- وبمجهود كبير منه- فى اقتناصها. إذ يذكر المؤرخ ديودور الصقلى من القرن الأول ق.م. – والذى اعتمد بشكل رئيسى فى حديثه عن مصر على **رواية المؤرخ هيكاتايوس الأبديرى** من بدايات حكم بطلميوس بن لاجوس كملك فى أوائل القرن الثالث ق.م – أن "الكثيرين من الإغريق قد زاروا طيبة فى عهد بطلميوس بن لاجوس وألَّفوا كتباً عن التاريخ المصرى – وكان هيكاتايوس أحدهم – وهم يتفقون مع ما ذكرنا"[١٦]فى هذا المؤلف لهيكاتايوس الأبديرى عن التاريخ المصرى القديم Aegyptiaca- الذى اعتمد عليه ديودور الصقلى اعتماداً شبه مطلق – قَدَّم هيكاتايوس الحضارة المصرية بصورة مثالية وتحمس لها حماساً واضحاً أقرب ما يكون إلى "الولع بالمصريات/ Egyptomania" فى تقدير بعض العلماء.[١٧]

صحيح أن الحضارة المصرية بمنجزاتها العظيمة فى أغلب جوانب التراث الإنسانى جديرة بهذا الثناء وتسليط الضوء عليها، لكن هناك بُعداً آخر عملياً فى هذا الوصف الرائع من جانب هيكاتايوس يمكن أن ندركه فى إطار السياق العام للأحداث فى تلك الفترة فى أوائل حكم بطلميوس بن لاجوس لمصر. يتمثل هذا البعد – على الأرجح- فى أن هيكاتايوس أراد أن يبرز لبطلميوس ولغيره من منافسيه وأقرانه من خلفاء الإسكندر – ربما بإيعاز من الملك بطلميوس نفسه – مدى قيمة الغنيمة الكبرى التى فاز بها بطلميوس من بين أقطار إمبراطورية الإسكندر. وعلى الأرجح فإن هيكاتايوس قد أتيحت له الفرصة للإطلاع على سجلات الكهنة المصريين فى طيبة- والذى ربما كان على إلمام بدرجة ما باللغة المصرية- وبصورة أفضل مما أتيح لهيرودوت من قبله. ومما لا شك فيه أن هيكاتايوس أفاد – بدرجة كبيرة نسبياً – من

هيرودوت دون أن يتأثر بأسلوبه وطريقته.[١٨]

لقد أراد بطلميوس أن يرسخ هذا المفهوم عن ريادة مصر وإنجازها الحضارى الكبير بطريقة توثيقية من واقع سجلات الكهنة المصريين التى تحتفظ بكل شاردة وواردة عن تاريخ مصر القديم. لهذا السبب وقع الاختيار على **كاهن مصرى مثقف يجيد اللغة اليونانية هو مانيتون السمنودى** – كبير الكهنة المصريين فى هيليوبوليس – ليدوّن نسخة موثقة من تاريخ وطنه الأم، مصر، باللغة اليونانية على امتداد الأسرات الحاكمة التى تعاقبت على حكم مصر قبل مجيئ الإسكندر الأكبر؛ وهو التقسيم إلى ثلاثين أسرة حاكمة الذى يأخذ به علماء المصريات حتى وقتنا هذا.[١٩]

وهكذا يبدو أن بطلميوس الأول أراد أن يُثرى مكتبة الإسكندرية التى أنشئت فى عصره – هى والمجمع العلمى السكندرى "الموسيون" بمبادرة من السياسى والفيلسوف الأثينى اللاجئ إلى بلاطه آنذاك ديمتريوس الفاليرى[٢٠]– بمؤلفين قيمين عن التاريخ المصرى العريق برؤيتين يونانية ومصرية. ولكن لابد أن ننتبه إلى أن مثل هذه المؤلفات عن التاريخ المصرى– إن كانت قد شغلت حيزاً فى مكتبة الأسكندرية – كانت محدودة جداً بالقياس إلى الكم الضخم من التراث اليونانى الذى كانت تزخر به المكتبة ذات الطابع والجوهر اليونانى بما يتسق مع الأصول العرقية للحكام الجدد فى مصر والعالم الهيللينستى .إن وجود مثل هذه المؤلفات غير اليونانية – من مصرية أو غيرها – كانت بمثابة تعبير رمزى عن " عالمية العلم والمعرفة" فى مكتبة الإسكندرية، حتى وإن كانت فى واقع الأمر يونانية فى الأغلب الأعم. **وربما كان من بين أغراض وضع مؤلفات عن التاريخ المصرى القديم والإشادة بمنجزاته الحضارية كسب ود الصفوة المثقفة من المصريين ممثلة فى الكهنة المصريين ذوى التأثير والنفوذ لدى بقية فئات المصريين** ، أى كنوع من الترويج والدعاية – غير المباشرة– للحكم الجديد.

محاولة أخرى بذلها بطلميوس الأول (سوتير) للتقرب من المصريين

لتدعيم عرش مملكته تتمثل فى جانب دينى. فلكى يقرب بين أهل البلاد المصريين والمقيمين – الجدد والقدامى – من الإغريق والمقدونيين المستوطنيين بمصر استشار اثنين من كبار الكهنة هما المصرى مانيتون والأثينى تيموثيوس حول الطريقة المثلى لتحقيق ذلك. واستقر الرأى على **إنشاء عبادة "سيرابيس"**[٢١] أو أوزيرأبيس – ومعه بقية الثالوث المقدس إيزيس وحربوقراط/ حورس ليكون الإله الرسمى الحامى والراعى لدولة البطالمة ليتعبد له الطرفان المصرى والإغريقى، بما له من مواصفات ترضى الطرفين. علماً بأن عبادة سيرابيس لم تكن تشكل أى قيد أو حظر على عبادة أى من الآلهة الأخرى المصرية أو اليونانية.

إن **كتابة "التاريخ المصرى" وإبراز عراقته** والإسهام الحضارى الكبير لمصر والمصريين، **وإنشاء عبادة سرابيس** (على رأس الثالوث المقدس) للتقريب بين المصريين والإغريق لم تكن أكثر من "**حوافز معنوية**" **للمصريين،** أما **الواقع العملى لحياة المصريين** فقد كان فى وادى آخر وكانت **صورته سلبية قاتمة.** فعلى مستوى الجيش البطلمى مثلاً لم نعد نرى فى القدر المتاح من كتابات المؤرخين أو الوثائق ذكراً لمشاركة فاعلة من "الجند المصريين" فى معارك البطالمة الثلاثة الأوائل على مدى ما يقرب من قرن حتى عام ٢١٧ ق.م فى معركة رفح الشهيرة (سنتناولها لاحقاً). على مدى ذلك القرن تقريباً **(من معركة غزة عام ٣١٢ ق.م حتى معركة رفح عام ٢١٧ ق.م)** اعتمد الجيش البطلمى على **قوات المرتزقة**[٢٢] **من كافة أرجاء العالم اليونانى** من الإغريق والمتأغرقين من بلاد اليونان الأصلية وكل مناطق الاستيطان اليونانى خارجها، وقد فعل الملوك البطالمة ذلك عن عمد– على الأرجح– مخافة أن ينقلب عليهم الجند المصريون يوماً ما إذا ما أتيحت لهم فرصة الانخراط فى سلك الجندية البطلمى واكتساب وصقل خبراتهم القتالية، وذلك على اعتبار أن الملوك البطالمة حكام أجانب فى نهاية المطاف.

ولم يقف أمر استبعاد المصريين من سلك الجندية البطلمية عند هذا

الحد، بل كانت له تداعيات اقتصادية واجتماعية أشد خطورة على المصريين. إن حق "الملكية المقدسة" الذى ورثه الملوك البطالمة عن الملوك المصريين القدماء (الفراعنة) قد أطلق يد الملوك البطالمة فى أرض مصر الزراعية – وغيرها– وجعلهم يتصرفون فيها كما لو كانت ملكية شخصية لهم، وهو أمر حيوى للغاية بالنسبة للمصريين الذين كانت غالبيتهم الساحقة من المزارعين.

لقد صارت **معظم أرض مصر** "**أرضاً ملكية**" يصب معظم دخلها فى الخزانة الملكية من خلال الإيجارات والضرائب التى كانت تُفرض على "**الفلاحين الملكيين**" **(وغالبيتهم الساحقة من المصريين) الأُجرَاء الذين يقومون بأعمال الزراعة الشاقة، ولا يتبقى لهم إلا ما يسد رمقهم بالكاد.**[٢٣] وأما بقية الأرض الزراعية فى مصر فكانت تُوزَّع فى شكل ملكيات أو حيازات مستقرة طويلة الأمد ما بين كبار رجال الدولة فى صورة ضياع كبرى δωρεαι أو إقطاعات عسكرية κληροι متفاوتة المساحة والجودة تُمنح للجند المرتزقة من ضباط وجنود –كلٌ حسب رتبته– لتشجيعهم على الاستقرار بمصر. وأخيراً الأرض الممنوحة للمعابد ἱεραί γη بحسب أهمية كل معبد والإله المُكرَّس له. وهكذا صار أغلب المصريين فى أدنى درجات الهرم الإجتماعى وأفاقوا من سكرة وعود الإسكندر الأكبر المثالية ليجدوا أنفسهم غرباء فى بلادهم التى يتمتع بمعظم خيراتها المقدونيون والإغريق. وفضلا عن هذا الوضع الاقتصادى المتردى للمصريين فقد **كانوا يتعرضون لسوء المعاملة التى تصل إلى حد الإهانة وهم يقومون بزراعة الأرض كأُجرَاء،** أو حتى عندما ينتقل بعضهم إلى الإسكندرية للعمل هناك. ولعل من الشواهد على سوء معاملة المزارعيين المصريين فى الريف المصرى ذلك الالتماس[٢٤]الذى تقدم به مزراعون مصريون من هيليوبوليس إلى الديويكيتيس (وزير المالية) أبوللونيوس – وزير المالية الأشهر لبطلميوس الثانى فيلادلفيوس عام ٢٥٧ ق.م. فقد ذهب هولاء المزارعون المصريون من هيليوبوليس للعمل فى زراعة واستصلاح جزء كبير (ألف أرورة) من ضيعة أبوللونيوس الشهيرة فى قرية فيلادلفيا (كوم الخرابة

حالياً) بالفيوم والتى تبلغ مساحتها عشرة آلاف أرورة. ويشكو هؤلاء المزارعون المصريون فى التماسهم لوزير المالية البطلمى وصاحب ضيعة فيلادلفيا الكثير من معاناتهم فى مهمتهم التى قدموا من أجلها، حيث تعرضوا للتعنت والتضييق والإهانة من جانب أحد كبار المسؤولين عن الضيعة ويُدعى "داميس" فيما يخص زراعة الألف أرورة التى سبق إسنادها إليهم، فضلاً عما تعرضوا له من مضايقات وملاحقات فى أماكن سكنهم من جانب كاتب مصرى! من أعوان داميس.

إذا كانت مثل هذه الإهانات تلحق بالمزارعين (المصريين) فى الريف المصرى وعلى مسافة زمنية ليست ببعيدة عن أفكار الإسكندر المثالية عن إخوّة الجنس البشرى لا فرق فى ذلك بين الإغريق وغيرهم من (البرابرة)، وليست ببعيدة كذلك عن محاولة بطلميوس الأول سوتير التقريب بين أهل البلاد المصريين وبين جحافل الإغريق الذين استقروا بمصر – خصوصاً بعد فتوحات الإسكندر وتأسيس الأسرة الحاكمة البطلمية – من خلال عبادة وتقديس الطرفين لسرابيس والثالوث المقدس، فما بالنا بوجود **وعمل المصريين من أهل الريف فى الأسكندرية** عاصمة مملكة البطالمة ومن أعظم مدن البحر المتوسط آنذاك؟!

يبدو أن المصريين – بعدما خضعوا للحكم البطلمى وابتلعوا طُعم الإسكندر الأكبر عن مفهوم الإخوة الإنسانية، ومن بعده إرهاصات التقرب إليهم من جانب الساتراب بطلميوس فى معركة غزة عام ٣١٢ ثم لوحة الساتراب عام ٣١١ ق.م. – قد أدركوا أن هؤلاء الحكام الأجانب من المقدونين محتلون جدد لا يختلفون عن سابقيهم الفرس إلا فى السبل والوسائل. لقد تشبع المهاجرون الجدد الذين استوطنوا مصر من **الإغريق بنظرة استعلائية فوقية تجاه المصريين الموجودين بالإسكندرية**، وكأن العاصمة الجديدة قد أقيمت لهم دون غيرهم (من أهل البلاد الأصليين)!!

ربما كان خير تجسيد للتأفف من وجود المصريين بالإسكندرية من جانب

الإغريق – حتى من المستويات المتواضعة منهم – ما جاء فى إحدى رعويات ثيوكريتوس من عهد بطلميوس الثانى فيلادلفيوس. فى هذه الرعوية (الخامسة عشرة) تمتدح سيدتان ثرثارتان أصلهما من سيراكيوز فى صقلية –فى احتفالات أدونيس فى قصر الملك بطلميوس الثانى – المللك فيلادلفيوس لأنه جعل طرقات المدنية آمنةً.

"لقد أسديت كثيراً من الأفضال حقاً يا (جلالة الملك) بطلميوس بعد أن ارتقى أبوك فى عالم الخالدين: إذ ليس بوسع أحد أن ينسلَّ فى زيه المصرى ليلحق الأذى بعابرى السبيل، حيث كانوا هؤلاء الأشخاص الذين هم على نفس الشاكلة من حثالة الناس يتلاعبون من قبل ويدبرون الحيل والخدع، فهم جميعا أوغاد فى المكر السيئ".[٢٥]

ورغم أن هذه الأوصاف المقيتة للمصريين فى الأسكندرية عمل شعرى وليست حقائق ثابتة على إطلاقها، إلا أنها تمثل – على الأقل– رؤية صاحبها الشاعر ثيوكريتوس وبنى جلدته من إغريق صقلية وشريحة من بقية الإغريق الذين استوطنوا الإسكندرية ونظرتهم السلبية جداً لـ "جميع" المصريين وسلوكياتهم فى العاصمة الجديدة؛ كما لا ينبغى أن ننسى الفن والأدب يمثلان – بدرجة أو بأخرى – مرآةً لآى مجتمع أو لشرائح من ذلك المجتمع على الأقل.

إن ما أوردناه من أمثلة أعلاه تُعد قرائن على **مدى تدنى وضع المصريين والنظرة الدونية لهم من جانب الإغريق الذين استوطنوا بلادهم وعاملوهم باحتقار ومهانة – فى الريف والحضر والعاصمة– على مدى فترة حكم الملوك البطالمة الثلاثة الأوائل.** ويبدو أن المصريين قد تجرعوا مرارة الإهانة والتحقير من جانب هؤلاء الأجانب المتغطرسين ولكن على مضض، ربما بسبب القبضة القوية لهؤلاء الملوك الذين أمسكوا بزمام الأمور فى البلاد بحزم من ناحية، واعتدالهم – بغير شطط – فى التعامل مع شكايا والتماسات المصريين – وغيرهم – فى شئون حياتهم العامة والخاصة.[٢٦]

لكن يبدو أن سلوكيات وتعاملات فئات غير قليلة من الإغريق المقيمين فى مصر مع المصريين وتعمدهم إهانة واحتقار أهل البلاد المصريين والنظر إليهم باستعلاء وتأفف – برغم أن نسبة كبيرة من هؤلاء الإغريق قد تركوا بلادهم لشظف العيش هناك، أى أنهم من الطبقات الفقيرة أو المتوسطة على الأكثر – قد **أثار حفيظة المصريين وجعل نيران غضبهم مكتومة فى صدورهم تتحين أية فرصة للاشتعال.** وإذا لم يكن بوسع هؤلاء المصريين القيام بثورة كبيرة تنهى هذا الاحتلال الأجنبى لبلادهم بسبب قوة وحزم وسياسة الملوك البطالمة الثلاثة الأوائل، فإن هذا الغليان المكتوم فى مرجل صدورهم قد عبَّر عن قدر من مكنونات أنفسهم فى صورة حالات فردية فى مناطق التماس والعيش المشترك التى كانت تجمع العنصرين المصرى والإغريقى. فها هو مثلاً **رجل إغريقى فى الفيوم** يرفع مظلمةً إلى الملك بطلميوس الرابع فى بدايات عهده **يشتكى فيها من أن (سيدة مصرية) قد اشتبكت معه فى مشاجرة شخصية عنيفة ووجهت له أقذع ألفاظ السباب على الملأ ومزقت ملابسه بعد أن أغرقتها بسيل من البول وبصقت على وجهه وأهانته أبلغ إهانة.** وفى نهاية الالتماس يتوسل هذا الإغريقى للملك أن ينصفه ويُنزل العقاب الرادع بهذه السيدة (المصرية) التى أهانته أبلغ إهانة وهو (الإغريقى)!![٢٧] **وفى التماسات أخرى للملك يشكو بعض المقدونيين فى الفيوم من أن مصريين** قد قاموا بقتل وتشويه عدد من خنازيرهم عمداً.[٢٨]ويشتكى مقدونى آخر من أن مواشى المصريين من جيرانه قد أتلفت مزروعاته وأنه حين عاتبهم ووبخهم على ذلك انهالوا عليه ضرباً بعصيهم وأوسعوه ركلاً وضرباً مُبرحاً فى كل أجزاء جسده وخلعوا رداءه واستولوا عليه.[٢٩]

إذا كانت هذه هى طبيعة العلاقة بين المصريين والإغريق فى الريف المصرى، **فماذا عن الوضع بين أكبر عنصرين للسكان فى العاصمة الإسكندرية؟** رغم أن المصريين كانوا يشكلون قطاعاً كبيراً من سكان الإسكندرية وكان لهم ثقلهم الديموجرافى فإنهم **لم يتمتعوا بوضع قانونى أو دستورى فى**

المدينة. ففى حين كان من يتمتعون بمواطنة الإسكندرية πολιτεια من صفوة الإغريق والمقدونيين فى المدينة يُعرَّفون بالحى δημος المسجلون به فى سجل (المواطنين)، وكان المقيمون الآخرون بالإسكندرية من إغريق أو غيرهم يُعَّرفون بالمدينة أو العرق الذين ينتمون إليه أصلاً (كريتى، قورينائى، إسبرطى، يهودى، سورى، إثيوبى...إلخ) فإن المصرى فى الإسكندرية يبدو أنه لم يحظ منذ البداية بتعريف وصفى رسمى. لقد كان تعريف Αίγύπτιος (مصرى) يُستخدم بصورة جمعية لتعريف العنصر المصرى عموماً (سواء ورد فى حالة المفرد أو الجمع)، ونادراً جداً ما استخدم كتعريف شخصى لأى فرد مصرى (فى الإسكندرية) قبل الفترة الرومانية.[٣٠] هل كان هذا الأمر يعنى أو يوحى بوضع أدنى للمصريين فى الإسكندرية عن بقية العناصر السكانية الأخرى فى المدينة التى كانت تنضوى تحت روابط κοινά أو جاليات πολιτεύματα تكفل لها حقوقاً مُعترفاً بها – حتى وإن كانت محدودة – حسبما يرى فريزر؟ صحيح أن وضع المصريين فى الإسكندرية كان متدنياً وكانوا موضع احتقار وتأفف من جانب الإغريق والسلطة الحاكمة – كما رأينا فى رعوية ثيوكريتوس الخامسة عشر وكما سنرى لاحقاً – إلا أن **عدم التعريف بهوية المصرى فى الإسكندرية لا تعتبر تهويناً من شأنه، حتى وإن لم تقصد السلطات ذلك.** إن الأمر – فى تقديرى – مختلف: إذ أن فريزر يتحدث عن تحديد هوية الأشخاص (الأجانب) الموجودين فى الأسكندرية بنسبتهم إلى أصولهم المكانية أو العرقية لأن هناك حاجة لذلك فى التنظيم الإدارى والوضع الاجتماعى للسكان، **أما أهل البلاد من (المصريين) فليسوا بحاجة إلى التعريف بهويتهم إلا إذا تعلق الأمر بمعاملات فيها طرف مصرى وآخر أجنبى،** بمعنى أن عدم تحديد هوية المصرى فى الوثائق والكتابات ربما انطوى على اعتراف ضمنى بأنه من أهل البلاد (غنىٌ عن التعريف).

لقد كان المصريون فى الإسكندرية يشكلون أغلبية عددية منذ فترة مبكرة من تاريخ المدينة، ورغم أنهم لم يتمتعوا بامتيازات فى المدينة – بل

العكس– إلا أنه كان بوسعهم أن ينازعوا إغريق المدينة فى دعوى أنهم السكان الأصليون للمدينة (حتى من قبل أن تُنشأ). ولكن رغم هذه الأغلبية العددية للمصريين فى الإسكندرية **إلا أننا نادراً ما نسمع عنهم حتى نهاية القرن الثالث ق.م.**، وهو ما قد يدعونا لاستنتاج أن الهوة بين السكان المصريين والطبقات العليا والمتوسطة من الإغريق فى الإسكندرية كانت آنذاك شبه كاملة. **ربما كان الاستثناء لتلك القاعدة هو تأثر بعض أبناء الطبقة العليا من إغريق الإسكندرية بالفن المصرى، لا سيما فى فن النحت والعمارة الجنائزية.**(٣١)

وإذا كان المصريون ينفّثون عن مكنون غضبهم تجاه عجرفة الإغريق – فى الريف والمدينة – فى صورة حوادث فردية على مدى أغلب القرن الثالث ق.م. كما أشرنا من قبل– وألحقوا فيها بأفراد من هؤلاء الإغريق الأذى والإهانة– **فإن الشعور المعادى للإغريق من جانب المصريين كان آخذاً فى التنامى ضد هؤلاء المحتلين المتغطرسين وتجاه عاصمتهم الجديدة الإسكندرية.** هذا العداء المتزايد أدى إلى ظهور نوع من **أدب المقاومة المصرى**(٣٢)– الذى صاغه على الأرجح مثقفون مصريون ممن كانوا يجيدون اللغة اليونانية التى دوّن بها أغلب هذا الأدب ليصبح موجهاً للمحتلين وللمصريين لشحذ همتهم وللتنبؤ بزوال الاحتلال والمحتلين. هذا الأدب ظهر مبكراً منذ القرن الثالث ق.م – لاسيما فى مصر الوسطى والعليا – وظلَّ المصريون يستدعونه فى الأوقات العصيبة والمحطات المفصلية من كفاحهم على مدى العصرين البطلمى والرومانى. لقد كُتب هذا الأدب باللغتين اليونانية والمصرية لتوجيه رسالته للطرفين لتحذير هذا وتحفيز ذاك. ولعل أبرز نماذج هذا الأدب المقاوم "نبؤة صانع الفخار" و"الحولية الديموطيقية" و"حلم نكتانيبو" و"السيرة الشعبية للإسكندر"، وهذه الأخيرة جعلت من الإسكندر الأكبر ابناً لآخر ملوك الأسرة الثلاثين المصرية "نكتانيبو الثانى" (٣٦٠–٣٤٣ ق.م) كما اشرنا أعلاه عند الحديث عن الإسكندر فى مصر.

وبعد هذه الإرهاصات المبكرة من الغليان المكتوم – والذى لاحت بوادره فى أدب المقاومة السلمى وبعض الحوادث الفردية – **أرسل القدر للمصريين فرصة "ذهبية" ردت إليهم قدراً من اعتبارهم** وإن لم تُنه الاحتلال نهائياً. فمنذ اعتلاء الملك بطلميوس الرابع (فيلوباتور) (٢٢١-٢٠٤ ق.م) العرش بدأ الضعف يدب فى أوصال مملكة البطالمة التى أصبح على سُدة الحكم فيها ملك ضعيف متخاذل منغمس فى الشهوات والملذات – على النقيض من أبيه القوى الحصيف بطلميوس الثالث (يوراجيتيس الخيّر ٢٤٦-٢٢١ ق.م). وفى ظل هذا الوضع ترك بطلميوس الرابع أمور الحكم وإدارة الدولة بصورة كبيرة لوزيريه الفاسدين سوسيبيوس وأجاثوكليس. وقد انتهز فرصة هذا الضعف فى البلاط البطلمى الملك السليوقى الشاب القوى أنطيوخوس الثالث (٢٢١-١٨٧ ق.م) الذى اعتلى عرش مملكة السليوقيين فى نفس العام (٢٢١ ق.م.) مع بطلميوس الرابع، وعزم الملك السليوقى الشاب على استرداد منطقة جوف سوريا من البطالمة، وهى المنطقة التى تسببت من قبل فى نشوب ثلاثة حروب بين المملكتين عُرفت بـ "الحروب السورية". ولما كان معين الجيش البطلمى من الجند المرتزقة قد أخذ ينضب ولم يعد كافياً – على الأرجح بسبب بذخ وسفه ومجون الملك– فقد فكر وزيره الداهية سوسيبيوس فى استهلاك الوقت فى مفاوضات عقيمة مع الجانب السليوقى. وفى خلال هذه الفترة من المفاوضات الممتدة (٢١٩-٢١٧ ق.م) كان سوسيبيوس يشرف على تجنيد ما تيسر من قوات المرتزقة من عدة أماكن فى اليونان وكريت وطراقيا وجالاتيا[٣٣]، كما قام بتجنيد قوة نظامية من المصريين – بحكم الضرورة، وبعد طول استغناء وتهميش– حيث قام بتعبئة وتسليح عشرين ألفاً من المصريين وتدريبهم على أساليب القتال المقدونية وتولى قيادتهم بنفسه.[٣٤]

وبعد هذا الاستعداد المكثف للمعركة المتوقعة بين الطرفين استطاع الجيش البطلمى– بعد بداية ضعيفة ومهزوزة جعلت الملك بطلميوس الرابع يبادر بالانسحاب من ميدان المعركة تحت حماية قواته– أن يحرز نصراً كبيراً

لعبت "القوات المصرية" من المشاه المحاربين μαχίμοι فيه دوراً كبيراً فى **موقعة "رفح" فى ٢٢ يونيو عام ٢١٧ ق.م،** وعاد الملك البطلمى إلى الإسكندرية منتصراً، وكافأ جيشه المنتصر بثلاثمائة ألف قطعة من الذهب.[٣٥]

ولعل التطور اللافت للنظر بعد تلك الواقعة الحاسمة أن **مجمعاً كبيراً قد انعقد فى ٢٥ نوفمبر من نفس العام ٢١٧ ق.م.** ضمَّ أبرز وأهم الكهنة المصريين للاحتفال بنصر رفح. المهم فى الأمر أن هذا المجمع **قد انعقد فى (منف)** العاصمة القديمة للبلاد ورمز القومية المصرية، وليس فى الأسكندرية ولا ضاحيتها الشرقية كانوب مثلما حدث فى نقش كانوب عام ٢٣٨ ق.م.، كما أن هذا النقش قد دوّن **بالخطيّن الهيروغليفى والديموطيقى من اللغة المصرية مع ترجمة لمحتواه باللغة اليونانية**[٣٦]ومثله فى ذلك مثل نقش كانوب السالف الذكر، وحجر رشيد اللاحق من عام ١٩٦ ق.م. (الذى سنتاوله بعد قليل والذى هو أشهر تلك النقوش ثلاثية اللغة لآننا استطعنا من خلاله فك رموزالكتابة المصرية). وكان هذا المشهد الفريد فى منف أول ثمار انتصار رفح الذى أسهم فيه المحاربون المصريون بدور بارز.

واتفق مع جونتر هولبيل (ص ١٦٤) فى توصيفه **للعلاقة بين الملوك البطالمة** الثالث والرابع والخامس **مع جموع الشعب من المصريين** فى ضوء **قرارات مجامع الكهنة المصريين الثلاثة** المشار إليها أعلاه بترتيبها الزمنى. فهو **يرصد من خلالها بوضوح تطوراً فى العلاقة بين الملوك ورجال الكهنوت المصرى** الذين يمثلون – من الناحية الرسمية على الأقل – جموع المصريين. ففى نقش كانوب تناقصت الهيمنة الواضحة للملك البطلمى، وفى نقش رفح تطورت إلى علاقة أكثر اعتدالاً بحيث صارت علاقة تبادلية المنافع بين الملك وكبار الكهنة المصريين. فبعد انتصار رفح أغدق الملك النعم والخيرات على المعابد المصرية وكهنتها اتساقاً مع التقاليد المصرية العريقة، وبدورهم كالوا له آيات المديح والثناء على (انتصاره) فى رفح وأياديه البيضاء على الشعب والكهنة والمعابد.

إن هذا الانتصار الكبير فى رفح على ملك سليوقى قوى هو أنطيوخوس الثالث والدور الكبير الذى لعبه المصريون فى إحرازه قد **قلب – بدرجة كبيرة – موازين الحكم فى مملكة البطالمة لصالح المصريين**. إن المؤرخ بوليبيوس (5.107.1-3) يشخص لنا هذه الحالة الكبيرة من الصحوة والثقة التى تلبست المصريين بعد موقعة رفح بقوله:

"وبعد ذلك (أى بعد نهاية الحرب السورية الرابعة بانتصار رفح) تورط بطلميوس (الرابع) فى حرب ضد المصريين. إذ أن هذا الملك– بتجنيده للمصريين للحرب ضد أنطيوخوس (الثالث) – قد اتخذ قراراً ملائماً فى حينه، ولكنه انطوى على سوء تقدير بالنسبة للمستقبل. فقد تملكتهم نشوةٌ عارمة بنجاحهم فى رفح ولم يعودوا يطيقون تلقى الأوامر، بل كانوا يتطلعون إلى شخصية تقودهم لأنهم اعتقدوا أنهم كانوا آنذاك قادرين على حماية أنفسهم؛ وهو الأمر الذى تحقق لهم بعد فترة وجيزة".

وفى موضع آخر (14.12.3-4) يشير بوليبيوس إلى وضع الملك بطلميوس الرابع فيلوباتور بعد موقعة رفح وموقفه من المصريين فيذكر:

"وبعد نهاية الحرب حول جوف سوريا فإن الملك بطلميوس فيلوباتور تخلى عن كل مسلك كريم واتجه إلى حياة الاعتزال (والتفرغ للملذات 5.34). ولكن فى أواخر حياته أجبرته الظروف على التورط فى الحرب التى أشرت إليها، وهى حرب لم تشهد معارك نظامية ولا قتالاً ولا حصار ولا أى شئ يستحق الذكر، هذا فضلاً على الوحشية والهمجية التى أبداها كل طرفٍ نحو الطرف الآخر".

إن بوليبيوس – من خلال شهادتيه أعلاه – قد لخص لنا مجمل أحوال مملكة البطالمة فى أعقاب معركة رفح. فقد تفرغ الملك فيلوباتور لشهواته ورغائبه وأظهرته المصادر القديمة فى صورة الملك الغارق فى الملذات والذى أهمل شؤون الحكم والإدارة، واهتم اهتماماً خاصاً بطقوس عبادة ديونيسوس رب الخمر والإخصاب.[٣٧] هذا فضلاً عن اهتمامه بالأدب حيث ألَّف مسرحية عن

"أدونيس" وعلَّق عليها وزيره ونديمه أجاثوكليس. كما أنه لشغفه بهوميروس أنفق المال لتشييد معبد له وأقام طقوس عبادة تكريماً له فى الإسكندرية.(٣٨)

فى الوقت ذاته كان **المدَّ الوطنى المصرى قد بلغ ذروته بعد معركة رفح وبدأ فى التمرد على الحكم البطلمى فى أرجاء البلاد – لا سيما فى مصر العليا – يتخذ منحى جاداً لم يسترع انتباه الملك إلا عندما تفاقم ذلك الخطر** بحيث بات يهدد كيان المملكة التى بدأت تترنح واتضح ذلك جلياً – بعد مناوشات حادة وعصيان – فى الإقليم الطيبى فى مصر العليا الذى أقدم على الانفصال والحكم الذاتى اعتباراً من ٢٠٦/٢٠٧ إلى ١٨٦ ق.م، وهو النقطة التالية فى حديثنا.

وهكذا **أسدل انتصار رفح الستار على حقبة مجيدة من حكم البطالمة فى القرن الثالث ق.م.** – بحكم ما أنجزوه من إمبراطورية خارجية وتنظيم اقتصادى داخلى مُحكم– بحيث كان ذلك القرن هو "**قرن البطالمة**"– حسب تعبير هولبيل.(٣٩)

لقد أسفر هذا الشعور الوطنى المتنامى من جانب المصريين فى أعقاب انتصار رفح عن حدث جلل هزَّ أركان مملكة البطالمة داخل مصر.وقد تمثل هذا الحدث فى **انفصال الإقليم الطيبى عن مملكة البطالمة لمدة عشرين عاماً تقريباً** كما أسلفنا، وأقام المصريون فى الإقليم الطيبى دولة مستقلة تعاقب على حكمها اثنان من الأمراء المصريين المحليين. فبعد انتصار أولىّ أحرزه الثوار فى طيبة قرب أواخر حكم بطلميوس الرابع قاموا بتصعيد قائدهم (حِر وِن نِفر/هيرجونافور بالنطق اليونانى) ليصبح فرعوناً حاكماً على الإقليم الطيبى حيث سقطت طيبة فى أيدى الثوار. وقد ظل حِر وِن نِفر يحكم الإقليم الطيبى من ٢٠٦ إلى ٢٠٠ ق.م، وأقدم قرينة على فترة حكمه شقفة من أوستراكا الكرنك مؤرخة بـ ١١ نوفمبر عام ٢٠٦ ق.م.، وخلفه فى الحكم فى الإقليم الطيبى أمير مصرى آخر هو عنخ وِن نفر – الذى يُكتب باليونانية خاوُن نوفريس – واستمر يحكم من ٢٠٠ إلى ١٨٦ ق.م.(٤٠)

ولعل من القرائن المهمة على بدايات تلك الثورة المصرية فى الإقليم الطيبى نقش فى معبد الإله حورس فى إدفو حيث تواصل تشييده وتزيينه تحت حكم بطلميوس الرابع فليوباتور (والذى بدأه بطلميوس الثالث يوإرجيتيس) بهمة ونشاط بهدف استمالة كهنة الإقليم الطيبى ذوى النفوذ والتأثير لتأييد الأسرة الحاكمة البطلمية. ويخبرنا هذا النقش أن "اضطرابات قد اندلعت بعد أن أعاق العمل فى عرش الآلهة (أى معبد الإله حورس فى إدفو) وأوقفه متمرودون مجهولون من الجنوب، وقد احتدمت الانتفاضة فى الجنوب حتى العام التاسع عشر من حكم الملك بطلميوس (الخامس)"[٤١] أى ١٨٦/١٨٧. وعقب وفاة بطلميوس الرابع عام ٢٠٤ ق.م. **اعتلى العرش البطلمى فى الإسكندرية ابنه الطفل بطلميوس الخامس (كان فى سن السادسة).** وبمجرد وفاة بطلميوس الرابع توالت مؤامرات القصر فى البلاط الملكى على يد الوصييّن الفاسدين على العرش سوسيبيوس وأجاثوكليس، وراح ضحية تلك المؤامرات الملكة العاقلة المثقفة أرسينوى الثالثة التى سرعان ما اغتالها الوزيران الفاسدان سراً فى نفس يوم وفاة زوجها فيلوباتور ولفقا وصية مزورة نسباها إلى الملك المتوفى يُسند فيها إليهما الوصاية على عرش ابنه الملك الطفل. وسرعان ما توفى سوسيبيوس بعد ذلك، ولقى أجاثوكليس وأخته أجاثوكليا– عشيقة فيلوباتور– وأمهما أوينانثى مصيراً قاتماً وقُتلوا شر قتلة ومُثّل بهم على أيدى عوام الإسكندرية الهائجين. وتعاقب على وصاية العرش البطلمى بعد ذلك تليبوليموس وأخيراً أريستومينيس عام ٢٠١ ق.م. وبعد هذه الأحداث فقدت مملكة البطالمة أملاكها فى جوف سوريا وعلى سواحل آسيا الصغرى وطراقيا.[٤٢]هذا فضلاً عن الاستقلال (المؤقت) للإقليم الطيبى عن الحكم البطلمى، وهو بيت القصيد فى المرحلة فى سياق هذا البحث.

فى ظل هذه الخلفية من الظروف الصعبة داخلياً وخارجياً على الملك الطفل وحاشية البلاط البطلمى حاولت السلطات البطلمية فى الإسكندرية حفظ الحد الأدنى من ماء الوجه– داخل مصر على الأقل –بالقيام **بإرسال قوات**

بطلمية لاسترداد الإقليم الطيبى. وتشير **إحدى منقوشات معبد سيتى الأول فى أبيدوس** إلى حصار تعرضت له أبيدوس حوالى عام ١٩٨ ق.م. (من جانب القوات الملكية البطلمية بلا شك)، ولكن من الواضح أن هذا الحصار من القوات الملكية لم يؤتِ نتيجته المرجوة.[٤٣]

ويبدو أن **عدوى الثورة على الحكم البطلمى فى مصر العليا قد سرت فى كل أرجاء مصر.** ويتضح هذا الأمر من خلال **نقش حجر رشيد**[٤٤]**الشهير** ثلاثى اللغة والذى تضمن الكثير من الدلالات التى لا تخطئها العين. فحين بلغ الملك السن القانونية لاعتلاء العرش من دون وصى – سن الرابعة عشرة – عام ١٩٦ ق.م. رتب أريستومينيس – الرجل القوى فى القصر والوصىّ الأخير على العرش– ومعه بوليكراتيس من أرجوس – أحد القادة البواسل فى موقعة رفح والذى شغل فى الفترة من ٢٠٣ إلى ١٩٧ ق.م. منصب حاكم وكبير كهنة قبرص– أمر **تنصيب الملك رسميا وتتويجه فى منف (العاصمة المصرية الوطنية القديمة)** فى ٢٦ مارس عام ١٩٦ ق.م. على يد كهنة بتاح الذين أسبغوا على الملك الصبى لقب إبيفانيس (بمعنى الشهير أو الظاهر). لقد كان مرسوم نقش حجر رشيد نتاج اجتماع مجمع الكهنة المصريين (ماعدا كهنة الإقليم الطيبى المنشق). فى هذا المرسوم على النقش (المصرى الطابع تماماً) أغدق الكهنة المصريون المجتمعون ألقاب التقديس والتكريم والثناء على الملك الجديد مثل "محبوب بتاح"، "الإله الظاهر والمُحسن" كما أشاد الكهنة إشادة بالغة بما أنعم به الملك على المعابد والآلهة المصرية، وكذلك بالإعفاءات الكلية أو الجزئية للعوائد والإيجارات والضرائب المستحقة من المصريين للتاج الملكى لكى ينعم الناس بالرفاهية فى ظل حكمه. كما أشاد الكهنة المصريون فى النقش بإسقاط الملك للديون السابقة المستحقة من المصريين للتاج الملكى، وبالعفو عمن كانوا فى السجون ومن هم قيد الاتهام من التهم الموجهة إليهم. كما يذكر النقش أن الملك قد أعفى الكهنة من عدد من الالتزامات والأعباء المفروضة عليهم ومن بينها الالتزام السنوى بالإبحار شمالاً فى النيل نحو

الأسكندرية [٤٥](على الأرجح للاحتفال بعيد ميلاد الملك). أما عن تعامل الملك مع القوات المصرية فى الجيش البطلمى فيذكر قرار الكهنة أن الملك قد أصدر أوامره بخصوص الجند المشاة المصريين μάχιμοι الذين عادوا إلى مواطنهم، والآخرين ممن كانوا متمردين وقت الاضطرابات أن يرجعوا ويحتفظوا بممتلكاتهم.[٤٦]

كل ما سبق يشير إلى **المحاولات الدؤوبة من الملك الصبى – أو بالأحرى مستشاريه– لاسترضاء كافة فئات المصريين واحتواء غضبهم** وإعادتهم إلى كنف الولاء والطاعة للبيت البطلمى الحاكم بكل أساليب الترغيب والتحفيز. **ولكن ماذا عن موقف الملك وقوات الجيش البطلمى ممن كانوا لا يزالون يرفعون راية التمرد والعصيان والثورة على الحكم البطلمى** ويرغبون فى الخلاص منه؟ هناك فقرة فى نقش حجر رشيد تشير إلى أن القوات الملكية البطلمية *"توجهت إلى ليكوبوليس فى مقاطعة بوسيريس فى الدلتا (أبو صيرينا جنوب سمنود الحالية) التى احتلها المتمردون وتحصنوا بها ضد الحصار – ومعهم قدر وفير من الأسلحة والمؤن– لأن السخط والتمرد قد طال مداه بين الكفرة العُصاة الذين احتشدوا هناك وألحقوا ضرراً بالغاً بالمعابد وبسكان مصر؛ وقد عسكرت (القوات الملكية) قبالتها وأحاطتها بالتلال والخنادق والتحصينات الضخمة، وحين ارتفع فيضان النيل ارتفاعاً كبيراً فى العام الثامن (١٩٨/١٩٧ ق.م) وأوشك أن يغرق السهول كالمعتاد أحكم الحصار عليها من خلال إقامة السدود والجسور فى أماكن عديدة أمام مصبات القنوات... وبذلك اجتاح المدينة فى وقت قصير واستولى عليها وأهلك كل من فيها من الكفرة العُصاة كما فعل هيرميس (تحوت) وحورس بن ايزيس وأوزيريس حين أخضعوا المتمردين من قبل فى هذه الأماكن ذاتها. وحين أتى إلى منف لينتقم لأبيه ولعرشه الملكى عاقب كافة قادة وزعماء المتمردين فى فترة حكم أبيه والذين أزعجوا البلاد وألحقوا الضرر بالمعابد العقاب الملائم عند مجيئه إلى هناك (منف) لأداء الطقوس والاحتفالات اللائقة بارتقاء منصبه الملكى..."*[٤٧]

إن الجو العام للنقش مُشبَّع بأجواء مصرية خالصة: إذ اجتمع كبار الكهنة المصريين فى عاصمتهم التليدة "منف" (وليس فى الإسكندرية عاصمة البطالمة)، ويتم تتويج الملك الجديد الشاب (الصبى) كفرعون هناك ربما لأول مرة. وفى النقش يتضح بجلاء تقرب الملك من الكهنة المصريين (ممثلى الشعب المصرى/ من الناحية الرسمية أو الشكلية على الأقل) ومحاولة كسب ودهم بالعطايا والهبات والإعفاءات لهم ولعموم المصريين بعد أن امتدت الثورة وأعمال التمرد على الحكم البطلمى واتسع نطاقها ولم يقتصر على الإقليم الطيبى فى العليا، بل وصل شمالاً إلى قلب الدلتا كما رأيناه أعلاه.

ويبدو أن استرضاء ومصالحة (بل على الأرجح رشوة) الملك الجديد للكهنة المصريين قد وصلت أقصى مداها حتى أن الملك أعفى هؤلاء الكهنة من الذهاب السنوى المعتاد إلى الإسكندرية للاحتفال – على الأرجح – بعيد ميلاد الملك.(٤٨)

إن **لغة المصالح المتبادلة والواضحة بين الملك والكهنة على حساب الثوار المصريين** جعلت هؤلاء الكهنة ينعتون بنى جلدتهم من الثوار المصريين على الحكم البطلمى فى الدلتا بـ "الكفرة/العُصاة ἀσεβεῖς" ويبدون لغة شماتة واضحة فيما حلَّ بهم من مصير قاسى ومُهين.

هكذا استخدم الملك الجديد وحاشيته **لغة الترغيب والترهيب** –أو العصا والجزرة– فى محاولة القضاء على ثورة المصريين بعد معركة رفح، بعد أن مُنيت مملكة البطالمة بانتكاسات خطيرة داخلياً وخارجياً ما بين ٢٠٦، ١٨٦ق.م. ورغم محاولات الملك وأد تمرد المصريين كما رأينا إلا أن قدراً من **مكاسب تلك الثورة بالنسبة للمصريين** ظل يتفاعل ويستمر على الأرض بعد ذلك لفترة طويلة.

ها نحن نرى– لأول مرة منذ بداية الحكم البطلمى – **أخوين من كبار ضباط وقادة الكتائب المصرية** من صفوة الجند المشاة فى الجيش البطلمى **يُعربان للملك بطلميوس الخامس إبيفانيس** – فى أوائل القرن الثانى ق.م. بين

عامى ٢٠٤- ١٩٤ ق.م.، قبل زواج بطلميوس الخامس من كليوبترا الأولى ابنة الملك السليوقى أنطيوخوس الثالث عام ١٩٤ ق.م. التى لم يرد ذكرها فى النقش- **عن شكرهما وامتنانهما للملك على أن أسند إليهما** وإلى جنودهما من صفوة المقاتلين المصريين **مهمة حراسة القصر الملكى!** (٤٩)

ولم تنطفأ جذوة الوطنية المصرية تماماً بعد حكم بطلميوس الخامس، بل على النقيض فقد استغل بعض المصريين مكانتهم المرموقة فى البلاط الملكى لأبناء بطلميوس الخامس (بطلميوس السادس فيلوميتور وأخيه الأصغر بطلميوس الثامن يوراجيتيس الثانى الذين تشاركا فى حكم مملكة البطالمة بعد وفاة أبيهما عام ١٨٠ ق.م.) للخلاص من نير الحكم البطلمى. فقد ظهر على الساحة حوالى عام **١٦٥ ق.م. شخصية مصرية مرموقة هو ديونيسيوس بيتوسرابيس** الذى وصفه ديودور الصقلى كما يلى: *" لقد حاول ديونيسيوس، المدعو بيتو سيرابيس – من أصدقاء بطلميوس- أن يهيمن على أمور البلاد لنفسه وألحق بالمملكة مخاطر جسيمة، فقد مكَّن لنفسه أعظم نفوذ فى البلاط وبزّ كافة أقرانه من المصريين فى أهوال القتال، لذلك احتقر الملكين لصغر سنهما وافتقارهما إلى الخبرة."* (٥٠)

ويستكمل ديودور الصقلى فى بقية هذه الفقرة ما آل إليه حال ديونيسيوس بيتو سرابيس فيقول أنه حاول الوقيعة بين الأخوين الملكين وزعم أن الأخ الأكبر فيلوميتور يدبر مؤامرة لاغتيال أخيه الملك الأصغر يوارجيتيس الثانى وأنه أوعز إليه (إلى بيتوسرابيس) بتنفيذ ذلك وسفك دماء أخيه، وأشاع ذلك بين عامة ودهماء السكندريين الذين تجمعوا على الفور إلى استاد المدينة للانقضاض على الأخ الأكبر وقتله وتسليم العرش لأخيه الأصغر. ولكن الأخ الأكبر فيلوميتور أحبط هذه المحاولة من جانب بيتوسرابيس بأن اصطحب أخاه الأصغر إلى حيث يوجد الجمع المحتشد ودافع عن براءته وهو يذرف الدمع الغزير وأن ما أشيع عنه هو محض افتراء لا أساس له من الصحة. ونصح أخاه الأصغر ألا يصدق شخصاً يسعى إلى اغتصاب السلطة الملكية منهما

وأنه (فيلوميتور) على استعداد لتسليم التاج الملكى والحكم لأخيه الأصغر إذا كان الأخير لا تزال تساوره أية شكوك أو مخاوف من ناحيته.

وحين أخفق ديونيسيوس بيتوسرابيس فى محاولته هذه ابتعد عن الأنظار وأصبح من غير الممكن الوصول إليه، ولكنه أرسل رسائل لأولئك الجند (المصريين) الذين كانوا مهيئين للثورة وسعى إلى تحفيزهم على مشاركته أحلامه وآماله. وانسحب إلى ضاحية إليوسيس شرق الإسكندرية القديمة (الحضرة الحالية) حيث رحب بكل من تحمس للثورة وتجمع لديه أربعة آلآف من رفاقه من الجند المشاكسين. وقد سار الملك لمواجهتهم وانتصر عليهم فقتل البعض وأجبر الباقين على الفرار. أما ديونيسيوس نفسه فقد اضطر أن يسبح عارياً " *وانسحب إلى الداخل بين المصريين محاولاً إثارة وتحفيز جموع المصريين على الثورة. ويختتم ديودور حديثه عن هذا (البطل) المصرى بالقول: "ولما كان (بيتوسرابيس) مقداماً ذا همة* δραστικος *وحظى بشعبية عظيمة بين المصريين فسرعان ما حشد الكثيرين ممن لديهم الرغبة فى مشاركته فيما يقوم به"* (٥١)

إن هذا النص لديودور الصقلى يكشف المستور عن الثورة المتأججة فى نفوس المصريين ضد الحكم البطلمى رغم ترغيب وترهيب الملوك البطالمة للمصريين. إذ نرى من خلال النص مجموعة من صفوة وقادة المصريين فى البلاط الملكى، وكان أكثرهم همةً ونفوذاً وتأثيراً ديونيسوس بيتو سرابيس الذى احتشد من حوله كثير من المصريين فى الإسكندرية الذين يُقدر عددهم فى النص بنحو أربعة آلاف – بخلاف الأعداد الكبيرة التى انضمت إليه فى الريف المصرى بعد فشل محاولته فى الإيقاع بين الملكين الحاكمين. إذ أن ذلك القائد المصرى الشجاع لم يرفع راية الاستسلام البيضاء أمام الملكين البطلميين رغم هزيمته هو وأنصاره أمام الجيش البطلمى– وهو أمر متوقع لتفاوت العدد والعتاد بين الطرفين – بل سرعان ما حشد فى الداخل المصرى (الريف) أعداداً كبيرة من المؤمنين بقضيته ومريديه لمقاومة الاحتلال والحكم البطلمى.

وعقب هذا الأمر نجد فى **بعض القرائن الوثائقية التى تفصح لنا عن استمرار جذوة المقاومة المصرية مشتعلة تحت الرماد لتندلع – من آن لآخر– مسببة القلق والاضطراب للحكم البطلمى** على مدى القرنين الثانى والأول ق.م. فقد هاجم الثوار المصريون معبداً لآمون (أمونيوم) قرب كروكديلوبوليس (مدينة التماسيح) بالفيوم– بعد أن تعرض لدمار جزئى أثناء غزو الملك السليوقى أنطيوخوس الرابع قبل يضع سنوات من محاولة انقلاب بيتوسرابيس – حيث قاموا بتفكيك حجارة المعبد ودمروا كل بواباته وجعلوا أجزاء من السقف تتهاوى. وكان سبب تدمير المعبد هو أنه كان مُستقراً لبعض مُلاَّك الإقطاعات العسكرية فى المنطقة ممن كانوا يتعاونون – هم والكهنة المحليون – مع الاسرة الحاكمة البطلمية (وهو ما يُذكرِّنا بتواطؤ الكهنة المجتمعين فى منف علم ١٩٦ ق.م. مع الملك بطلميوس الخامس فى قرار مجمع الكهنة على حجر رشيد ضد بنى جلدتهم من الثوار المصريين فى الدلتا ونعتهم بـ "الكفرة/ العُصاة"). كما ورد ذكر "ثوار مصريين" قاموا بإحراق مستندات ملكية أحد الكهنة فى بردية من سكنوبايونيسوس فى الفيوم مؤرخة بالفترة ١٦٩–١٦٤ ق.م.[٥٢]

وفى تلك الآونة بعيد ثورة ديونيسيوس سرابيس **اندلعت انتفاضة فى الإقليم الطيبى ورد ذكرها عند ديودور الصقلى**[٥٣]. فى هذه الانتفاضة اجتاحت جموع الناس فى الإقليم الطيبى رغبة عارمة فى الثورة، وتحرك بطلميوس السادس بقواته وتغلب عليهم وأخضع معظم ذلك الإقليم باستثناء مدينة (بانوبوليس/ أخميم) التى صمد الثوار المصريون فيها صموداً كبيراً ففرض عليها الملك حصاراً مضنياً لقى الجيش البطلمى فيه عنتاً ومشقة بالغةً ،لكنه استولى عليها– بصورة غير مستقرة[٥٤]– فى نهاية المطاف وأنزل العقاب بمن تسببوا فى تأجيج العصيان، ثم عاد إلى الأسكندرية. هذه الانتفاضة أشادت إليها نبوءات وردت فى بعض شقف الأوستراكا من أرشيف حور[٥٥]– وهو كاتب وكاهن مصرى– حيث طمأن الملك البطلمى بأن هيرميس مثلث العظمات

(تريسميجتسوس/ يقصد الإله تحوت) قد أفصح له أن (المتمردين) المصريين سيُهزمون وأن الملك فيلوميتور سرعان ما سيأتى إلى الإقليم الطيبى؛ وهكذا استمرت لغة المصالح والتواطؤ بين كهنة مصريين والعرش البطلمى بغض النظر عن اعتبارت الوطنية!

فى تلك الآونة العصيبة لمملكة البطالمة من جراء استمرار تمرد المصريين عليها **تدهورت الزراعة وساءت أحوال أهل الريف المعيشية وأثقلت الضرائب كاهلهم** مما اضطر الكثيرين منهم إلى الفرار من قراهم συλία ἀναχώρησις وهجرها واللجوء إلى المعابد التى تتمتع بحق الحصانة ά بصورة مؤقتة أو دائمة كنسَّاك أو خدم محتجزين κάτοχοι لخدمة المعبد كما يتجلى من مجموعة وثائق من سرابيوم منف من تلك الفترة المضطربة قبيل منتصف القرن الثانى ق.م.[٥٦] ومن أجل محاولة التصدى لظاهرة التدهور المستمر لأحوال الزراعة آنذاك **صدر مرسوم ملكى بهذا الخصوص مؤرخ بشهر سبتمبر عام ١٦٥ ق.م.**[٥٧]هذا المرسوم الملكى صدر باللغتين اليونانية والمصرية (بالخط الديموطيقى) وأشاد إلى بوار الأرض ونقص المياه وانخفاض الفيضان. وتتمثل خلاصة هذا المرسوم فى ضرورة **إجبار المزارعين (وغالبيتهم من المصريين بطبيعة الحال) على استئجار الأرض** التى هجرها مزارعوها وذلك بإيجارات مخفضة، وأن يتيح من يمتلكون ماشية أو دواب حمل للإدارة استخدام تلك الحيوانات لزراعة الأرض الملكية.

وقد كثرت الشكاوى وتراكمت فى مكتب فى مكتب الديويكيتيس (وزير المالية) فى الإسكندرية – لا سيما من جانب أفراد الحرس المصريين فى الإسكندرية وبقية رفاقهم من الجند المشاة المصريين μάχιμοι – من صرامة السلطات البطلمية فى تنفيذ ذلك المرسوم. وعليه **أصدر الديويكيتيس مذكرة تفسيرية للمرسوم الملكى** فى مراسلاته فى الفترة من ٢١ سبتمبر إلى ٢٣ أكتوبر عام ١٦٤ ق.م.[٥٨] **يُعفى فيها "الماخيموى" المصريين تماماً من عملية الاستئجار القسرى للأرض** – ربما بحكم أنهم فى موقع قوة ويستطيعون

إرباك أحوال مملكة البطالمة – المرتبكة أصلاً – أكثر فأكثر.(٥٩)

ماذا عن الأسكندرية ودورها فى استيعاب المصريين الذين ضاقت بهم الأحوال وتقطعت بهم السبل فى الريف فى تلك الآونة العصيبة؟ لقد كان للإسكندرية نصيب من تدفق المصريين من أهل الريف خلال القرن الثانى ق.م. فقد زار المؤرخ الشهير بوليبيوس الإسكندرية فى بدايات الحكم المنفرد لبطلميوس الثامن يوراجيتيس الثانى (١٤٥-١١٦ ق.م.) وقسَّم سكان المدينة– من خلال مظهرهم الخارجى وسماتهم الظاهرية/ وهو تصنيف غير دقيق – إلى ثلاثة عناصر هم : المصريون أهل البلاد، والجند المرتزقة، والسكندريين(٦٠). وفى حديثه عن العنصر والمكوّن المصرى من سكان الإسكندرية يقول :***"العنصر المصرى الوطنى (من أهل البلاد) وهو عنصر حاد الطباع وغير متمدين (غير متحضِر)"*** :

Τό τε Αίγυπτιόν καί επιχώριον φυλον,̓οξύ καί άπολιτικόν

وحين يصف فئة السكندريين يذكر أن عنصر السكندريين لم يكن متمديناً بدرجة كافية

Τρίτον δ̓ην γένος τό των Αλεξανδρέων, ουδ̓ αυτο εύκρινως πολιτικόν

.... وإن كانوا أفضل من أولئك الآخرين (يقصد المصريين)، إذ أنهم رغم كونهم خليطاً (من أماكن شتى) فإنهم فى نهاية المطاف يونانيون فى الأصل وحريصون على اتباع العادات المشتركة لليونانيين"! **إلى هذا الحد بلغت العنصرية عند بوليبيوس لصالح اليونانيين على حساب المصريين!!**

كما أن هناك كاتباً آخر يهودياً كتب **رسالة أدبية مطوَّلة**– تحت اسم مستعار هو **أريستياس** – وجهها إلى آخر يُدعى فيلوكراتيس، ويرجع تاريخها – على الأرجح – إلى أواخر القرن الثانى أو بدايات القرن الأول ق.م.(٦١) إن صلب الموضوع هذه الرسالة الأدبية المطوَّلة هو إلقاء الضوء على الترجمة

السبعينية للأسفار الخمسة الأولى من التوراه Πεντάτευχος التى قام بها اثنان وسبعون من أحبار اليهود من فلسطين.

وفى بعض فقرات ذلك العمل يعقد الكاتب مقابلةً بين مدينتى أورشليم والإسكندرية ويشير – فى هذا السياق – إلى **الوجود المكثف للقرويين المصريين فى الإسكندرية وإهمالهم لزراعة الأرض**، وهو ما يؤكد تفاقم تلك الظاهرة على مدى القرن الثانى ق.م. وفى هذا الخصوص يذكر ذلك الكاتب اليهودى الذى ربما كان مُقرباً من البلاط البطلمى ما يلى:

"إن قدر المدن الكبرى المزدهرة أن تكون مأهولةً بكثافة سكانية فى حين يتم إهمال الريف لأن أفكار الناس جميعاً ترنو إلى الاستمتاع، فكل البشر لديهم نزوع طبيعى إلى المتعة والبهجة. إن هذا هو ماحدث بالنسبة للإسكندرية، المدينة التى تفوق كل المدن الأخرى فى المساحة والرفاهية: إذ ينزح إليها أهل الريف ويطيلون البقاء هناك، وهو الأمر الذى أوصل الزراعة إلى مستوى متدهور. ولذلك أمر الملك – لكى يحول دون بقاءهم فى المدينة – ألا يتجاوز مدة زيارتهم للمدينة عشرين يوماً، وأصدر أوامر مكتوبة لموظفيه أنه إذا حكمت الضرورة استدعاء أيٍ من هؤلاء الأشخاص (من القرويين المصريين) إلى المدينة إلى أن يتم الفصل فى قضاياهم، فليتم ذلك فى غضون خمسة أيام. ونظراً لأنه أولى الأمر أهميةً بالغةً فقد عين قضاة ومعهم معاونيهم لكل منطقة (فى مصر) حتى لا يخفض المزارعون ووكلاؤهم مخزون غلال الحبوب فى المدينة من عوائد الزراعة بينما هم يتربحون ويجنون الأموال وهم فى المدينة" (٦٢)

إن تفاصيل هذا الأمر الذى يشير إليه أريستياس يتوافق بدرجة كبيرة مع الظروف السياسية والاقتصادية لمصر وعاصمتها الإسكندرية على مدى القرن الثانى ق.م. وإذا كان بوليبيوس قد نعت المصريين فى الإسكندرية بأنهم فئة حادة الطباع ولا تميل إلى الحياة المدنية المتحضرة فإن **استرابون** نفسه – الذى أورد رواية بوليبيوس عن فئات السكان الثلاثة فى الإسكندرية – **يناقض**

بوليبيوس فى وصفه للمصريين ويذكر أنهم (أى المصريين) "***منذ بداية تاريخهم يحيون حياة مدنية متحضرة***"، ويشير فى موضع آخر أن **مصر كانت** "***فى الأغلب الأعم بلداً مسالماً منذ بداية تاريخها***"[٦٣] ويبرر ذلك فى نفس الموضع الأخير بالاكتفاء الذاتى للبلاد ومنعة حدودها بحكم جغرافيتها الطبيعية- مقارنةً بمن حولها – مما يجعل من الصعب غزوها. بل ويُصدر فى ذات الفقرة حكماً أو انطباعاً مؤداه أن "***المصريين ليسوا محاربين رغم كثرتهم العددية الهائلة***". لعل ذلك الانطباع الأخير الذى خرج به استرابون عن عدم جاهزية المصريين للقتال رغم كثرتهم كان نتيجة للظرف التاريخى الذى زار فيه استرابون مصر برفقة صديقه أيليوس جالوس، ثانى الولاة الرومان على مصر (٢٧-٢٥ ق.م.). فقد سبق لكورنيليوس جالوس – أول الولاة الرومان على مصر (٢٩-٢٧ ق.م.) – أن قمع بصورة عنيفة تمردوا للمصريين فى الإقليم الطيبى امتنعوا عن دفع الضرائب لجباة الضرائب الرومان،كما سبق أن أخمد تمرداً فى هيرونبوليس (السويس) واستولى عليها بعدد ضئيل من قواته[٦٤] وقد تفاخر كورنيليوس جالوس بهذه الإنجازات على مدنيين مصريين عُزَّل- لا قبل لهم من حيث العدد والعتاد بقوات الإمبراطورية الدججة بالسلاح، ولا تقارن بحملات البطالمة الضعاف من قبلهم – ونقش هذه الإنجازات المزعومة على الأهرامات المصرية وأقام تماثيل لنفسه فى كل أرجاء مصر، وهو الأمر الذى أدى إلى سوء عاقبته حيث أثار حفيظة الإمبراطور ومجلس الشيوخ الرومانى (السناتوس) الذى صوَّت بالإجماع على إدانته واستدعائه مما أجبره على الانتحار.[٦٥]

ولم يقتصر وصف استرابون لبعض الشعوب بأنهم غير محاربين على المصريين، بل امتد ليشمل العناصر والأجناس المحيطة بمصر، إذ يذكر فى نفس الفقرة (17.1.53) أن المصريين أنفسهم ليسوا بأهل قتال... ولا الأقوام (الأجناس) المحيطة بهم":

Ουτ' αυτοί Αιγύπτιοι πολεμισταί....ουτε τά πέριζ εθνη.

ويبدو أن **استرابون كان يقدم وصلة دعائية للمحاربين الرومان بصورة مبالغٍ فيها** إكراماً لصديقه أيليوس جالوس. فقد برر – فى الموضع ذاته من كتابه – هزيمة أيليوس جالوس فى حملته على "بلد العرب السعيدة" فى جنوب شبه الجزيرة العربية بخيانة الوزير النبطى سيلايوس (سُلّى) مرافق ودليل الحملة. إذ يذكر أن الوالى الرومانى "اكتشف أن هؤلاء الناس (العرب) ليسوا بمحاربين، وأنه لولا خيانة سيلايوس لكان قد أخضع كل بلاد العرب السعيدة".

والخلاصة **أن المصريين وإن كانوا مسالمين ومتحضرين** حسب وصف استرابون أعلاه **إلا أنهم لم يكونوا متخاذلين**، لا سيما إذا طفح بهم الكيل من تعسف وغطرسة المحتمل كما رأينا على مدى البحث. كما أن **المصريين لم يكونوا يتسامحون مطلقاً مع إهانة معتقداتهم:** وفى هذا الصدد يروى لنا المؤرخ ديودور الصقلى[٦٦] واقعة مشهورة كان ذلك المؤرخ شاهد عيان عليها أثناء زيارته لمصر فى عهد بطلميوس الثانى عشر الزمار حوالى عام ٦٠ ق.م. وتتلخص هذه الواقعة فى أن وفداً رومانياً رفيع المستوى كان فى زيارة عمل وتقصى للحقائق فى الإسكندرية قبل أن تقدم روما على الاعتراف بشرعية جلوس بطلميوس الزمار على العرش البطلمى والإنعام عليه بلقب "صديق الرومان"، أى حينما كانت مملكة البطالمة فى أضعف حالاتها وتحاول استرضاء روما وتتحاشى إغضاب الرومان لأى سبب أو ذريعة.

وفى أثناء هذه الزيارة **قتل أحد أعضاء الوفد الرومانى – عن غير قصد – قطة فى الطريق**، وإذا بعوام الناس (من المصريين طبعاً) يهجمون على منزل الجانى الرومانى. ولم تفلح محاولة الموظفين الذين أرسلهم الملك للتوسط والشفاعة للرجل، ولا الخوف الذى كان يجثم على صدور الجميع من بطش الرومان بهم فى إفلات المبعوث الرومانى الذى ارتكب الجرم بحق القطة من العقاب . وقد كان العقاب فى مثل هذه الحالة من قتل عمد أو غير عمد لطائر من طيور الأيبيس أو قطة – كما يخبرنا هيرودوت [٦٧] قبل ديودور بنحو أربعة قرون – هو الإعدام الفورى للجانى من غير محاكمة على يد العامة الهائجين.

حواشى البحث[١]

(1) سبق أن تناولت هذا الموضوع بقدر أكبر من التفاصيل فى كتابى البحثى:

١- محمد السيد عبد الغنى، (٢٠١٧)، مصر القديمة من منظور يونانى بين المفاهيم والممارسات (الجزء الأول: منذ البداية حتى فتح الإسكندر الأكبر لمصر)، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية.

(2) محمد السيد عبد الغنى، مصر القديمة من منظور يونانى .....، ص ١٣٠، حواشى ١-٤.

(3) Diodorus Siculus 17.49.2; Arrian, Anabasis of Alexander 3.1-2; Quintus Curtius 4.7.1.

(4) محمد السيد عبد الغنى، "مدى مصداقية المصادر اليونانية حول وحشية الفرس المصريين" (بحث ألقى فى مكتبة الإسكندرية ضمن أعمال المؤتمر العلمى الثانى لقسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية بالاشتراك مع مركز الإسكندرية للدراسات الهيللينستية تحت عنوان :

("مصر التاريخ والحضارة فى العصرين اليونانى الرومانى" – ٢٨-٢٩ سبتمبر ٢٠٢٢)

(5) Arrian 3.1.4.

(6) Arrian 3.2.5.

(7) Bowman, A.K. (1986), p.22; Hölbl, G. (English transl. 2001) pp. 77,80.

(8) Arrian, 3.:1.5-2.2.

(9) أنظر: محمد السيد عبد الغنى، "أدب المقاومة المصرى ضد الحتلال الأجنبى فى العصرين البطلمى والرومانى" فى مجلة كلية الآداب – جامعة الأسكندرية، العدد ١٠٣ يناير ٢٠٢١، ص ص ١٠٥-١٦٠، ص ص ١٢٠-١٣٣.

(١٠) للمزيد من التفاصيل عن " كليومينيس النقراطيسى" وشخصيته وأهمية دوره وسياساته المالية والاحتكارية أنظر:

-مصطفى العبادى، "كليومينيس وسياساته المالية فى مصر فى عهد الإسكندر الأكبر" فى (مجلة – كلية الآداب – جامعة الأسكندرية – العدد (١٧) عام ١٩٦٣ ص ص ٦٥-٨٥).

-محمد السيد عبد الغنى، "نقراطيس فى المصادر الأدبية والوثائقية" فى (مجلة مركز

الدراسات البردية والنقوش – جامعة عين شمس – أعمال المؤتمر الدولى الخامس عشر للمركز عام ٢٠١٤، ص ص ٢٥١–٢٦٨.(

-محمد السيد عبد الغنى، مصر القديمة من منظور يونانى، ص ص ١٢١–١٤١.

(11) مصطفى العبادى، ١٩٨٨، العصر الهيللنيستى – مصر–، دار النهضة العربية، بيروت، ص ص ٣٢–٣٥.

(12) Diod. 18.14.1, Pausanias 1.6.3 see also: Aristotle, Oeconomicus 2.2.33; Arrian, Anabasis 7.23, 6-8.

(13) Hölbl, G. (2001), pp. 14-16.

(14) Diod. Sicul. 19.80.4.

(15) Hölbl, G. p. 83. / p.5, note 1 وعن الملك خبَّاش أنظر:

(16) Diod. Sicul. 1.45.8.

(17) Hornblower, S. and Spawtorth, A. (eds.), The Oxford Classical Dictionary (3 rd ed., 1996), s.v. Hecataeus of Abdera, p. 671.

(18) Fraser, P.M., (1972), Ptolemaic Alexandria, Oxford, I., p. 497.

(١٩) لمزيد من التفاصيل حول مانيتون ودوره فى عهد بطلميوس الأول أنظر:

-محمد السيد عبد الغنى، "الهكسوس واليهود فى مصر عند مانيتون السمنودى – دراسة نقدية لرواية جوسيفوس" فى (مجلة "المؤرخ المصرى" – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة القاهرة – العدد (٥٦) يناير ٢٠٢٠ ص ص ١١–٤٦).

(20) مصطفى العبادى (٢٠٠٢/ الطبعة الثانية)، مكتبة الأسكندرية القديمة– سيرتها ومصيرها، المجلس الأعلى للآثار – القاهرة، الفصل الثالث: الموسيون والمكتبات، ص ص ٦٨–٩٦.

(21) مصطفى العبادى (٢٠٠٢)، ص ص ٤٧–٥٦.

(22) لقد كان من اليسير على الإغريق الالتحاق بسلك الجندية فى الجيش البطلمى كجند مرتزقة حيث أجزل الملوك البطالمة العطاء لهم نقدياً وعينياً. ولعل من الشواهد على ذلك ما جاء فى إحدى "الإنشودات الرعوية "Idylls /لثيوكريتوس حين ذكر – مازحاً أو ساخراً من نفسه – ما يلى: "إذا لم تنل أشعارى الرضا والقبول الملكى، فبوسعى أن أرتدى الزى العسكرى وامتطى صهوة جوادى وأهاجم العدو بجسارة ةأمضى إلى مصر " (Theocritus, Idyll 14, ll.58, 65-68).

ويبدو أن مثل هذا الوضع استمر فى مصر حتى أواخر العصر البطلمى: فقد استمر تدفق

الجند المرتزقة للالتحاق بخدمة الجيش البطلمى – فضلاً عمن استقروا فى مصر من أصحاب الإقطاعات العسكرية – وخصوصاً فى أوقات الأزمات والشدائد المحدقة بالبلاط البطلمى. ومن الشواهد القرائن على ذلك ما ورد من وصف يوليوس قيصر عام ٤٨ ق.م لجيش خصمه بطلميوس الثالث عشر شقيق كليوبترا السابعة فى حديث قيصر عن تلك المعارك التى عُرفت بـ "حرب الأسكندرية"، إذ يورد قيصر ما يلى:

"يضم الجيش البطلمى أعداداً من اللصوص وقطاع الطرق من سوريا وكيليكيا والبلاد المجاورة، وأضيف إليهم مجرمون ومنفيون، لأن كل من فرَّ من عبيدنا وجد ملجأً أمناً وحياة رغدة فى الأسكندرية، ما داموا يسجلون أنفسهم فى عداد الجند

" (Caesar, /Bellum Civile 3.110-111)

ترجمة النصين أعلاه مأخوذة (بتصرف طفيف) من :

-مصطفى العبادى (٢٠٠٢)، مكتبة الإسكندرية القديمة ....، ص ٤٣.

(23) محمد السيد عبد الغنى (١٩٨٢)، الأرض الملكية وطبقة الفلاحين الملكيين فى مصر البطلمية – رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

(24) P. London 7.1954, Philadelphia, 257 B.C.

(25) Theocritus, Idyll 15, 46-50.

(26) P. Enteuxeis, Requêtes et Plaintes adressées au roi d'Egypte au III siècle avant J. – C., par Octave Guéraud, Le Caire, 1931.

(27) P. Enteuxeis 79, Magdola, 218 B.C.

(28) P. Enteuxeis 70, Magdola, 221 B.C.

(29) P. Enteuxeis 75, Magdola, 222 B.C.

(30) Fraser, P.M., Ptolemaic Alexandria, I. p. 54.

(31) Fraser, Ptolemaic Alexandria I, p. 70; Venit, Marjorie Suzan (2002), Monumental Tombs of Alexandria; The Theater of the Dead, Cambridge University Press; Savvopoulos, Kyriakos (2011), Alexandria in Aegypto: The Role of the Egyptian Tradition in the Hellenistic and Roman periods: Idiology, culture, Identity and Public Life, Ph.D. Thesis, Faculty of Archaeology, Leiden University.

(٣٢) محمد السيد عبد الغنى، أدب المقاومة المصرى ضد الاحتلال الأجنبى فى العصرين البطلمى والرومانى"، أنظر الحاشية رقم (٩) أعلاه.

(33) Polyb. 5.63.8- 65.11.

(34) Polyb. 5.65.9; 82.6; 85.9.

(35) Thissen, H.j., Studien zum Raphiadek ret, Meinesheim/ G.1.1966, Raphia Decree, ll.27-30; Greek Version, A.ll. 1-22.

(36) Hölbl, G., pp. 133, 162-165.

(37) BGU 1211.

(38) Hölbl, G. p. 133.

(39) Hölbl, p. 139.

(40) Hölbl, pp. 154-155.

(41) Hölbl, p. 154.

(٤٢) إبراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الأول (الطبعة السادسة ١٩٨٤/ مكتبة الأنجلو المصرية)، ص ص ١٦٦-١٦٨، ١٧١-١٧٤.

(43) Pedrizet, p.et Lefebvre, G., Inscriptiones Graecae Aegypti, vol. 3, 1919 (reprint 1978 by Ares publishers): Inscriptiones "Memnoni" sive Besae Oraculi ad Abydum Thebaidis, nos.32 and 32 bis.

(44) OGIS 90; S.B.8299. Cf. Austin, M.M. (1981), The Hellenistic World from Alexander to the Roman Conquest, Cambridge, no. 227, p. 374-378.

(45) Rosetta Stone (OGIS 90), ll. 7-17. of the Greek text.

(46) OGIS 90, ll. 19-20.

(47) OGIS 90, ll. 22-28; Polybius 22.17.1.

(48) Austin, M.M (1981), P. 378, note 13.

(49) Botti, G., BSAA 4 (1902), P. 94; OGIS II (1905), no. 731; Bernand, E., (2001), Inscriptions Grecques d'Alexandrie Ptolemaique, no. 26, pp.71-73.

(50) Diodorus Siculus 31.15a.1.

(51) Diodorus Siculus 3.15a.1-4.

(52) Hölbl, pp. 181 and notes 2,3,4 p. 214.

(53) Diodor. Sicul. 3.17 b.

(٥٤) يتضح ذلك من فقرة فى قرار العفو الذى أصدره بطلميوس الثامن يوراجيتيس الثانى عام ١١٨ق.م، (P. Tebt. 5, ll. 150-155) يسمح فيها الملك وزوجتاه (كليوباترا الثانية وابنتها كليوبترا الثالثة) للمصريين بإعادة بناء منازلهم الخاصة ومعابدهم بارتفاع يصل إلى عشرة أذرع، ولكنه يستثنى من ذلك سكان مدينة بانوبوليس! ولعل مرد هذا الاستثناء ما ورد عند ديودور الصقلى (الحاشة السابقة) من أن تلك المدينة كانت تقع على تل مرتفع مما جعلها ذات موقع حصين وعصية على الاقتحام مما جعل أبرز النشطاء من الثوار يتحصنون بها وأرهقت الجيش البطلمى الذى حاصرها خلال حكم

بطلميوس السادس بعد ثورة ديونيسيوس بيتوسرابيس (أى بعد عام 165 ق.م.).إن استثناء بانوبوليس من إعادة بناء المنازل الخاصة والمعابد بارتفاع عشرة أذرع – بعد فترة طويلة من التمرد المشار إليه، وتحديداً فى عام ١١٨ق.م.– يرجح أن تلك المدينة ظلت عصية متمردة طيلة الفترة الفاصلة بين التاريخين أو أن الملك كان يتخوف من عودتها من جديد لنهجها المتمرد.

(55) Skeat,T.C., Turner, E.G. (1968), "An Oracle of Hermes Trismegistos at Saqqara", JEA 54, pp. 199-208.

(56) UPZ I. 2-105.

(57) S.B.16 (XVI) 12821.

(58) UPZ. I. 110.

(59) Hölbl, pp. 181-183 and notes.

(60) Polybius apud Strabo 17.1.12 (C.797).

(61) Thackeray, H. St. J. (2003) The Letter of Aristeas, Wipt and Stock Publishers, Eugene, Oregon. Introduction, p. XIII.

(62) Ibid., paragraphs 108-111.

(63) Strabo 17.1.3; 17.1.53.

(64) Strabo 17.1.53.

(65) Dio Cassius 53.23.5-7; OGIS II.654.

(66) Diodor. Sicul. I . 83.8-9.

(67) Herodotus II.65.5.